د.عبد الكريم بكار

رؤى وأفكار ومنهجيات آمنت بها

وجهتي في الحياة

مركز الراية للتنمية الفكرية

دار الثقافة والتراث
للطباعة والنشر والتوزيع

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾

(البقرة ١٤٨)

وجهتي في الحياة

((رؤى وأفكار ومنهجيات آمنت بها))

٥٢٩٧٥٢
ت
434637
٢

مركز الراية للتنمية الفكرية

الطبعة الأولى : 1428 هـ
2007 م

وكلاء التوزيع
مكتبة مركز الراية للمعرفة الفكرية
شارع التحلية - مركز التحلية التجاري
الدور الأرضي - بوابة رقم4
ص.ب41547 الرمز البريدي
21531

جميع الحقوق محفوظة
للناشر

عنوان الكتاب : وجهتي في الحياة
((رؤى وأفكار ومنهجيات آمنت بها))
الناشــــر : مركز الراية للتنمية الفكرية
مكان الطباعة : جدة - المملكة العربية السعودية

غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقل بأي وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ موافقة كتابية من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

وجهتي في الحياة

((رؤى وأفكار ومنهجيات آمنت بها))

مقدمة

الحمد لله رب العالمين على ما تواتر من نعمائه، وعلى ما تتابع من جميل كرمه وإفضاله، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه ،ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين وبعد :

فإن الله ـ تقدست أسماؤه ـ وضع كل أمة من الأمم في سياق فريد، وجعل لها شرعة ومنهاجاً، ووجهة وجهها إليها، كما أنه ـ سبحانه ـ وضع كل واحد منا في بيئة وأوضاع وظروف تحدد وجهته العامة في الحياة، ومع هذا فإنه أمرنا بالعمل والجد والاجتهاد من أجل تحقيق الغايات الخيرة، والوصول إلى الأهداف النبيلة، وهذا معنى قوله ـ سبحانه ـ " ولكلٍ وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات " .

فالسبق إلى الخيرات مطلوب مهما كانت الظروف التي نعيش فيها، وعلى مقدار إخلاصنا وصدقنا وعملنا، يكون العطاء، ويكون الثواب والنجاح .

حين يتجاوز المرء الأربعين من عمره يجد نفسه فعلاً ماضياً في طريق واضح المعالم، ويدرك ما تحقق من آماله، وما عليه أن يحققه، وما هو من قبيل البعيد عن التحقيق، أي أن بصيرته ووعيه بذاته ينضجان إلى

حد كبير لكنهما لا يكتملان أبداً . إننا حين نكتب عن اتجاهاتنا ورؤانا نمارس في الحقيقة نوعاً من التقييم الذاتي، وهذا يعني أننا نجتهد، ونحاول وقد ننجح في المحاولة، وقد لا ننجح. ويجب أن يؤخذ كل ما سأقوله في هذه المقاربات على أنه كذلك . نحن في مسيرتنا الحياتية أشبه بكاتب لا يعرف التفاصيل الدقيقة للصفحة التي يكتبها حتى ينتهي من كتابتها، وإذا ضاعت صفحة من مقال كتبه، وحاول كتابتها ثانية، فإنه ـ ما لم يكن قد حفظها ـ لا يستطيع أن ينتج صفحة مماثلة تماماً لما ضاع منه، هكذا **نحن لا نعرف كل ما فعلناه على وجه الدقة، ولا نعرف أيضاً ما سنفعله بشكل محدد، فسيطرتنا على الماضي والمستقبل لم تكن أبداً كاملة، ولن تكون** . سأحاول في هذه الورقات أن أنقل للقارئ وجهة نظري وانطباعاتي في الكثير من القضايا والأمور آملاً أن يجد في ذلك عظة وعبرة أو منفعة وفائدة، أو يجد خيطاً من ضياء ينير جنبات المستقبل. والله ـ تعالى ـ أسأل أن يرزقني السداد في القول والعمل، وأن يتقبل هذا الجهد، ويجعله في موازين حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون، إنه ولي كل نعمة ومولى كل إحسان .

رؤية عامة

ولدت ونشأت في أسرة تعمل في الزراعة. وتسكن في قرية تسمى (تيرمعنة) وهي تبعد نحو من خمسة أميال عن مدينة (حمص) وتعد الآن بمثابة ضاحية من ضواحي المدينة. ويغلب على أهل تلك القرية أمران :

• الالتزام والتمسك بأهداب الدين، وحب العلم بكل تخصصاته ولا سيما علوم الشريعة، فنسبة حملة الإجازات الجامعية فيها مرتفعة جداً إذا ما قورنت بما هو موجود في القرى المجاورة. وهي في ذلك مدينة للأثر الطيب والانطباع الجميل الذي تركه فيها العلامة المقرئ الشيخ عبد الغفار الدروبي، نسأل الله في أجله، وأداء نفعه. فقد تولى فيها الإمامة والخطابة قبل ما يزيد على نصف قرن. فحبب إلى أهلها العلم وأهله، وغرس فيهم مبدأ التحاكم إلى الشريعة الغراء في الصغيرة والكبيرة، حيث كانوا يستفتونه، ويرجعون إليه في خصوماتهم وما شجر بينهم.

كان والدي - رحمه الله وأغدق عليه من واسع فضله وكرمه - كثير التلاوة لكتاب الله، حتى إنه قد يختم خمس أو ست مرات في الشهر الواحد. كما أنه كان من أهل قيام الليل والتهجد في السحر، إذ قلما يضيع الفجر، وهو نائم. وإذا استيقظت قبيل الفجر على صوته وهو

يدعو ويذكر الله تعالى ويتلو القرآن، كما أن حرصه على صلاة الجماعة في المسجد كان كبيراً، وقد كان شديد التوقير للعلم والعلماء، ولهذا فإنني حين نجحت إلى الصف الرابع الابتدائي، تركت مدرسة القرية، والتحقت بالمعهد العلمي الشرعي بحمص، وبعد أن درست فيه خمس سنوات التحقت بمعهد الفتح الإسلامي بدمشق، ودرست خمس سنوات أخرى، وبعد أن تخرجت فيه التحقت بالسنة الرابعة مباشرة بجامعة الأزهر كلية اللغة العربية بمصر . وقد كنت متفوقاً بحمد الله ـ تعالى ـ في المراحل الدراسية المختلفة، وأشعر بالامتنان لأساتذتي الكرام الذين علموني وربوني، كما أشعر بالامتنان لأحد الأقرباء ـ جزاه الله خيراً ـ والذي قال لي وأنا في الثالثة عشرة من عمري : لا أرضى لكَ شهادة أقل من (الدكتوراه) وقد أثرت في تلك الجملة تأثيراً بالغاً، وظلت بالنسبة إلي بمثابة الوقود الروحي إلى أن نلت درجة الدكتوراه في أصول اللغة عام ١٣٩٩ هجري .

وقد لمست من ذلك الأثر البالغ الذي يتركه التشجيع في نفوس الصغار . لا أريد أن أستعرض مسيرتي العلمية، ولا أن أخوض في تفاصيل الحياة الأسرية، إذ لم أعقد هذا الكتاب لشيء من ذلك، وإنما أردت بناء خلفية ثقافية اجتماعية خفيفة، قد تساعد على فهم ما سأفضي به عن وجهتي في الحياة .

١ـ أشعر أن لدي ميلاً عظيماً إلى امتلاك (الرؤية الشاملة) كما أنني أحب لعقلي أن يجول بين الماضي والحاضر والمستقبل، أحب رؤية الجذور والأسباب، وأحب فهم الواقع وتداعياته، وما يمكن أن تؤول إليه

الأمور، وإن كنت أصل إلى ما أحب تارة، وأخفق تارات وتارات .

لي عينان عين على الداخل وعين على الخارج، فأنا أنظر إلى مالدى الجامعة التي كنت أدرس فيها، وإلى مالدى الجامعات الأخرى، وأحاول اكتشاف الميزات الموجودة هنا وهناك .

أحب ألا يحبسني إطار، وألا يحجبني عن الرؤية الممتدة انتماء. أعتقد أن فهم قيمة ما لدينا من خير وميزات، وفهم مالدينا من معاناة ومشكلات لايكتمل، ولا يقترب من الكمال من غير فهم مالدى الآخرين، فنحن نعيش اليوم في عالم متداخل أشبه بسوق كبير، تستخدم فيه عملة واحدة، ولن تستطيع شراء أي شيء منه إذا لم يك في جيبك شيء من تلك العملة .

المقارنة ـ كما يقولون ـ هي أمّ كل العلوم، ولا نستطيع من غيرها إدراك روح العصر، وإدراك أحواله وتحدياته، ولهذا فإني طالما دعوت في كتبي إلى تنمية حس المقارنة، واعتمادها وسيلة أساسية للفهم، كيف نعرف أن جامعاتنا جيدة أو رديئة، وكيف نعرف أننا متقدمون صناعياً واجتماعياً أو متخلفون إذا لم ننظر إلى جامعات الأمم الأخرى وصناعاتها، وإذا لم نتأمل في أحوالها الاجتماعية .

أرجوا أن نتأمل في معنى الرقم (٥) ما معنى هذا الرقم لو لم يكن جزءاً من منظومة عددية كبرى . هكذا كل الأشياء تتضح قيمتها من خلال النظر إلى ما فوقها وما تحتها، والنظر إلى ما قبلها وما بعدها . القرآن الكريم يعقد مثل هذه المقارنة، فنحن كثيرا ما نجد ذكر المؤمنين مقترناً

بذكر الكافرين، كما تقترن عاقبة الإيمان بعاقبة الكفر، وكما يقترن ذكر الجنة بذكر النار، وأحياناً يأمرنا الكتاب العزيز بأن نقارن من أجل الاتعاظ والاعتبار ؛ يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(الحشر : ٢).

أي قيسوا أحوالكم بأحوالهم حتى لا تقعوا فيما وقعوا فيه، فيحل بكم نحوٌ مما حلِ بهم .

إني أجد في نفسي شيئاً من الضيق والتأفف من بعض الإخوان من الدعاة والفقهاء والمصلحين والناشطين في الخير بسبب الإهمال الذي يظهرونه تجاه من هو خارج جماعتهم أو مذهبهم أو خارج نطاق الأمة، وهم بذلك يحرمون أنفسهم من الرؤية المتوازنة والدقيقة، وقد قالوا قديماً: إن للشوهاء فضلاً على الحسناء، لأنه لولا قبح الشوهاء، لما ظهر حسن الحسناء .

إنني أعشق المقارنة لأنه ثبت لي أنها تكسر حدة التعصب، كما أنها تزيل عن الأعين الكثير من الغشاوات، وعن العقول الكثير من الأوهام.

٢ ـ تشكل (المعلومة) السند الأساسي لنا في فهم الأشياء والحكم عليها، وما زال الذي يحصل على معلومات أكثر أقدر على استخدام عقله بطريقة أفضل، لكنّ الخبرة علمتني منذ وقت بعيد أن الاعتماد الكلي على المعلومات، يشكل في بعض الأحيان مأزقاً حقيقياً، وقد يفضي فعلاً

إلى الضلال والابتعاد عن الحقيقة مسافات بعيدة، وذلك لأن المعلومات قابلة للمتاجرة والكذب المتعمد، كما أن الناس يزيدون وينقصون فيها بسبب فقد الدقة، وهذا كثيراً ما يحصل في((الأرقام)) التي تدل على ثروات الناس وديونهم وعلومهم وأزماتهم . ومن هنا فإن وجهتي في هذه المسألة هي محاولة فهم الأحداث والأمور والأوضاع والمشكلات من أفق معرفتي ب (طبائع الأشياء) ومعرفتي ب(سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق) ومع اعترافي بصعوبة الارتكاز على هذا في فهم العالم، واعترافي بضآلة قدراتي في هذا الشأن إلا أنني وجدت في ذلك ما يشكل إطاراً حقيقياً للفهم، وعاصماً قوياً من الوقوع في شرك المبالغين وفاقدي الإحساس بمسؤولية الكلمة، وعاصماً من الوقوع في الحرفية في فهم الأمور والتعامل معها، وسأوضح ما أريده هنا من خلال بعض الأمثلة :

أ ـ إذا تحدث المرء عن نفسه أو جماعته أو بضاعته أو مبادئه فإن التحدي الذي يواجهه هو الاحتراز من الوقوع في التهويل والمبالغة من خلال الحديث عن فضائل غير موجودة، ومن خلال ستر النقائص و المعائب . وحين يتحدث المرء عن ضعفه وقلة حيلته أو يسعى إلى إظهار تواضعه، فإن عليه الحذر من أن يتخذ ذلك وسيلة لجلب المديح : أنت خطيب مفوه . أستغفر الله، أنا لست بخطيب بل ولا نصف خطيب. يقول المادح إذا لم تكن خطيباً، فمن الخطيب إذن ؟ أسأل الله القبول، وهكذا . وقد وضع بعض القصاص والوعاظ الأحاديث على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدافع زيادة التأثير، والاستيلاء على قلوب السامعين. ومن هنا فقد عودت نفسي إذا سمعت من يتحدث عن إنجازاته أو إنجازات جماعته

أو. أن أعد الصحيح من ذلك في حدود الستين أو السبعين في المئة ليس أكثر . والمشكل أن المبالغة لا تكون أحياناً مقصودة، ولهذا فإن المبالغ لا يعرف أنه يبالغ . قد يقول لي قائل : هل يكفي هذا ؟ فأقول لا . ولهذا فإن علينا أن نحاصر هؤلاء بالأسئلة التي تكشف عن حقيقة الأمر، وقد جربت هذا، ووجدته مفيداً.

ب – تعلمت من التأمل في سنن الله في الخلق وفي الطبائع التي فطر الله ـ تعالى ـ الأشياء عليها أن القوة موصولة بالبغي والعدوان وتجاوز الحدود، وهذا واضح في قول الله ـ عز وجل ـ :﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (سورة العلق:٦-٧)وقوله سبحانه: " ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (شورة الشورى : ٢٧)مهما كان المرء تقياً وورعاً ونبيلاً، فإن القوة والمكنة تدفعه في اتجاه البغي والظلم، وعلى أهل المال والجاه والسلطان أن يحذروا من ذلك أشد الحذر . في المقابل نجد أن الضعف متصل بالذلة والمهانة، فنحن لا نعيش في وسط تحكمه العدالة المطلقة، وإنما يحكمه تدافع وتوازن الرغبات والأهواء والمصالح ولهذا فإن الضعيف يغري الآخرين بالعدوان عليه، وهذا ما تعانيه أمة الإسلام اليوم مع أعدائها والطامعين في خيراتها . هذه السنة من سنن الله تعالى ـ في الخلق ، وجهت تفكيري وكتاباتي ومحاكماتي العقلية، حيث صار تخليص أمة الإسلام من الضعف بوصفه وسيلة لدرء العدوان عنها، هو الهم المسيطر عليّ، كما صرت ألح على أن أزمة الأمة داخلية في جوهرها مع أنني لا أنفي وجود الكيد والضغط الخارجي، وقد

أخبرنا الباري ـ جل وعلا ـ أن الأمة حين تكون في الوضعية التي ترضي الله ـ تعالى ـ فإن تسلط الأعداء عليها ينحسر إلى الحدود الدنيا : ﴿وإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(آل عمران: ١٢٠)

شيء آخر أثر في كتاباتي وتوجهاتي الفكرية والمعرفية بسبب إدراكي لهذه السنّة، وهو ضرورة توفير بيئة اجتماعية وعدلية واقتصادية، تجعل من تسّول له نفسه العدوان على الناس، يدرك أنه سيدفع ثمن عدوانه، وتجعل الضعيف يجد السند القوي عند تعرضه للظلم، ودعوت كذلك بسبب تأثير هذه السنّة إلى توسيع

(الطبقة الوسطى) أي جعل معظم الناس غير قادرين على ممارسة البغي وغير قابلين لوقوع البغي عليهم . وأشعر أن التقدم الذي حققته أمة الإسلام على هذا الصعيد مازال محدوداً ومتواضعاً!

ج ـ الإجماع موصول بالكليات والعموميات، والخلاف موصول بالفروع والجزئيات، هذه سنة من سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق . وقد تعلمت من هذه السنة الكثير : تعلمت منها أن الكليات والعموميات تشكل الأرضية التي تقف عليها البشرية، وتشكل السياق العام لاطمئنان الإنسان للإنسان، وإذا رجعت إلى الذين ألفوا الموسوعات [1] في الحكم والأمثال والأقوال، وجدت أن مقولات البشرية حول الحلم والكرم والوفاء والصدق والإخلاص والوطنية وإكرام الجار والإحسان .

---

(١) وذلك مثل موسوعة روائع الأقوال من خلال الحكم والأمثال لمحمود بن منصور .

مقولات واحدة، ويمكن أن تنسب قول مسلم إلى غير مسلم، وقول غير مسلم إلى مسلم، ولا يكتشف ذلك أحد .

إيماني بهذا المشترك جعل حساسيتي تجاه الإطلاع على ما لدى الآخرين في الداخل والخارج ليست قوية، وإن كنت أقول دائماً : لا بد لمن يطلع على نتاج الآخرين من التزود بقدر جيد من الثقافة الإسلامية كي يعرف ماذا يأخذ، وماذا يدع.

ق – العمل الدعوي والحزبي و الاجتماعي والإصلاحي والإداري تتنوع أساليبه وأدواته وتوجهاته، وهو بذلك يتصل بالفروع والجزئيات . إن أهل السنة والجماعة، لا يختلفون في الأصول، فإذا جمعتنا الأصول، فلا يليق بنا أن تفرقنا الفروع . الفروع تجعلنا نختلف، نعم .و إذا لم نختلف بسبب الجزئيات دلّ ذلك على درجة من فقد الدقة الموضوعية، لكن لا يصح لافتراقنا بسبب الفروع أن يُزري باحترامنا للأصول . هذه الحقيقة تؤثر في على وجهين :

الأول : هو أنني أمقت التحزب والتعصب للمذهب والجماعة ، وأنا أؤمن بالتسامح والتساهل مع المخالفين لرؤاي ووجهات نظري، ولذا فإني أجد نفسي قريباً من تجمعات وجماعات عديدة، لما أعرف من صدق نواياهم وحرصهم على التمسك بالأصول، وإن كنت لا أرى صواب منهجهم العملي .

الثاني : هو الفتور تجاه ما يسمى ب (وحدة العمل الإسلامي) لأنني أعتقد أن العاملين في الحقل الدعوي لا يحتاجون إلى الوحدة، ولكن

يحتاجون إلى تفادي الصدام أولاً، وإيجاد أطر للتشاور والتعاون ثانياً .

إن طلب الإجماع على مالا يقبل بطبيعته الإجماع، هو نوع من هدر الوقت والجهد، كما أنه يجرِّعنا مرارات لا مسوغ لها . هذا ما أؤمن به، فهل مواقفي تجاه المشترك مع الأمم الأخرى، وتجاه المختلف فيه مع الأقربين تعكس هذه الرؤية ؟ في الغالب نعم . وفي بعض الأحيان أجد نفسي وقد خاصمت فعلاً في شيء اجتهادي، وانغلقت حيث يحبذ الانفتاح ؛ ويبدو أن هذا بسبب سيطرة العاطفة أو تأثير البيئة أو تعكر المزاج ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله .

د ـ من طبيعة الإنسان الميل إلى الاقتصاد في الجهد العضلي والاقتصاد في منح التعاطف، كما أنه شحيح في بذل ماله وجاهه، هذا هو شأنه وحاله، ولا يخالف هذا الطبع إلا لداع قوي، ولعلنا نفهم هذا من قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً ﴾(الإسراء: ١٠٠) وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾(النساء:١٢٨) لم يطلب الله ـ تعالى ـ منا الكثير من العبادة ولا الكثير من المال، ومع هذا فقد ذكر لنا الجنة ونعيمها مئات المرات في الكتاب العزيز، وذلك من أجل تحفيز الإنسان المسلم على بذل الجهد والخروج عن طبع الاقتصاد والتقتير . فهم هذه السنة ساعدني على فهم كثير من الأشياء والأحداث، كما ساعدني على بلورة بعض الرؤى الإصلاحية، وهذه أمثلة على ذلك :

ـ يحاول الإنسان إيصال أكبر قدر ممكن من المعاني بأقل قدر من الألفاظ ،لأن الكلام عمل، وهو لا يريد أن يعمل، ومن هنا فقد نستغني

بالإشارة عن العبارة ،و قد يكون الإفهام محتاجا إلى عشرين جملة، فنقتصر على خمس جمل ؛ وقد وجدت أن كثيراً من سوء الفهم لكثير مما نكتبه ونقوله سببه الاختصار المخل، ولذلك صرت أحاول في كتبي تيسير العبارة وتسهيل الأسلوب، لكن الحقيقة أن من غير الممكن معالجة مسائل دقيقة بأسلوب سهل ؛ فالموضوع يفرض دائماً نفسه . ومن وجه آخر فقد صار لدى حرص على معرفة ما فهمه السامع من كلامي حتى أتأكد من أنني لم أُفهم بطريقة خاطئة .

ـ الاستقامة على أمر الله ـ تعالى ـ تحتاج إلى درجة من التوثب الروحي، فالحيوية الروحية تحفز على عمل الخير والكف عن المعصية، وتضمن في الوقت نفسه الاستمرار في ذلك، وحين تخبو الروح وتتجمد العواطف فإن المسلم يفقد المحرض على بذل الجهد في مراضي الله تعالى .و يبدو لي أن بداية تراجع الحضارة الإسلامية كانت تتجسد في تراجع أخلاقيات الفرد المسلم وانحراف سلوكاته، وما كان ذلك ليحصل لولا أن الروح فقدت أشواقها النبيلة إلى رضوان الله ـ تعالى، ولولا أن وعي المسلم فقد الفرح والابتهاج بالإحساس بمعية الله تعالى ـ ورعايته وعنايته ؛ ولهذا فإني أرى أنه لابد لنا بدءاً من هذه الساعة من العمل على إنشاء تيار روحي يعلي من شأن التعبد والصلة بالله ـ جل وعز ـ وتذكر الآخرة والإكثار من ذكر الله والثناء عليه، واستحضار صفات عظمته وجلاله، ولا بد لذلك أيضاً من أن يكون مؤطراً بإطار الأحكام الفقهية والآداب الشرعية، حتى لا نقع في الخرافات والترهات والمخالفات، وسوف أؤكد على هذا في غير موضع .

- الاقتصاد في الجهد يعني الوصول إلى الغايات بأقل التكاليف، وهكذا فإذا أمكن نقل شخص من مكان إلى آخر بسيارة صغيرة، فإننا لا نخصص له - في العادة حافلة كبيرة، وإذا أمكن القضاء على فتنة بسجن شخص، فإنه لا أحد يقوم بالقضاء على قبيلته أو جماعته، وهكذا . وبناء على هذا فإنني قدرت أن عدد الروم في غزوة مؤتة كان في حدود الثلاثين ألفاً أي عشرة أضعاف عدد المسلمين، وذكرت في إحدى المحاضرات أنه لا معنى لأن يحشد الروم نحواً من مئة وخمسين ألفاً - كما تذكر بعض الروايات - لأن إدارة هذا العدد الضخم وتسليحه وإطعامه . من الأمور المكلفة جداً والعسيرة، فإذا لم تكن ثمة حاجة إليه فإن من طبيعة البشر الإعراض عنه . ولهذه السنة تطبيقات أخرى كثيرة، أعرضت عنها خشية الإطالة .

هـ - يشكل العقل، كما تشكل العاطفة شيئين أساسيين في شخصية أي إنسان، لكن من الواضح أن العاطفة لدى المرأة -غالباً - أقوى منها لدى الرجل، كما أن المحاكمة العقلية لدى الرجل - غالباً - أقوى منها عند النساء، هذا هو الذائع و المشهور، لكن من خلال خبرتي في الحياة وجدت أن الناس رجالاً ونساءً هم عاطفيون أولاً وثانياً وعقلانيون ثالثاً، مع أن الجميع يدعي أنه لا يقدم على شيء حتى يفكر فيه ! نحن نحب الشيء، فنضفي عليه كل صفات الكمال والجمال، ثم نكرهه، فتبدع عقولنا القصائد والخطب والمقولات الطوال في ذمه ! نصادق، فنظن أن من صادقناه صار بالنسبة إلينا سفينة النجاة، فإذا اختلفنا معه تضايقنا حتى من ذكره ! هكذا نحن عاطفيون و مزاجيون بامتياز . وقد تعلمت

من الوعي بالطبيعة البشرية في هذا الشأن ألا أصدق معظم ما يقوله المادحون، وألا أصدق معظم ما يقوله الشانئون العيابون، كما تعلمت أنه لا بد من الصبر على جموح العواطف، وعلى مواجهة الغلو في الحب والكره بالاعتدال، لكن هل أنجح دائماً في هذا أم تغلبني عاطفتي، فأنسى هذه القواعد، ويصبح سلوكي تابعاً لقلبي لا لعقلي ؟ الصحيح أن العاطفة تتغلب في بعض الأحيان ويستسلم العقل لها، وكأنه من غير حول ولا طول !

٣ـ أدركت منذ أمد ليس بالبعيد أننا في هذه الدنيا محكومون بالكثير من الضرورات والممانعات، أي ليس أمامنا خيارات مفتوحة بشكل مطلق، وظهر لي أن الأفراد والشعوب والأمم لا تستطيع الحصول على كل شيء، ولا بد إذا حصلت على بعض الأشياء من أن تخسر بعضها الآخر . التحدي الذي يواجهنا هو معرفة الخيار الأمثل بالنسبة إلينا، أي ما الذي علينا أن نضحي به حتى نحصل على ما هو أفضل منه، وهذا التحدي من أصعب التحديات التي تواجهنا لأن وعينا بأهمية كل خيار لا يأتي إلا متأخراً، وحين نعيه وندركه لا نعرف كيف نقنع أنفسنا به، وهذا من القصور المستولي على بني الإنسان، وقديماً قال الشاعر العربي :

إلى الله أشكو في المدينة حاجة وفي الشام أخرى كيف يلتقيان

وهذه بعض الأمثلة التي تشرح هذه الخبرة

أ ـ لا يستطيع المرء أن يعيش حياته بالطول والعرض، بمعنى أن الذي

يعطي نفسه كل مشتهياتها في الأكل والشرب واللذة و الراحة وكافة أشكال الاستمتاع، فإن عليه أن يتوقع المتاعب والأمراض والتي قد تداهمه من كل مكان، وهذا مما رتبه الخالق العظيم ـ جل شأنه ـ من العلاقة بين الأسباب والمسببات، وهذا ما نشاهده أينما اتجهنا ؛ إذ من النادر جداً أن نرى رجلاً يحمل على كاهله ٤٠٪ زيادة من وزنه الطبيعي ثم نراه وقد وصل إلى سن التسعين أو الخامسة والتسعين . نعم إنه يعيش حياته بالعرض، ولذا فليس له أن يتوقع امتداداً في المدة، ولكل قاعدة شواذ . المهم هو أن نعبر مرحلة الشيخوخة بأقل قدر ممكن من الآلام والمنغصات؛ والله يتولانا بفضله وكرمه.

ب ـ للعيش داخل الأوطان ميزة، وللغربة ميزة أخرى، ولا تستطيع الجمع بينهما . حين يحيا الإنسان في مسقط رأسه أو في مكان قريب منه، فإنه يشعر باجتماع جذوره ومتانة موقفه، ويشعر بالاستقرار والاستمرارية، إنه يستمتع بالعلاقة بأصدقاء الصبا والتواصل مع الأهل والأرحام ! التواصل العفوي والمجاني والمتمهل، ويشعر ويشعر .

ميزات كثيرة يصعب حصرها، ومع هذه الميزات هناك بعض المعاناة، حيث يتأثر المقيم في بلدة بظروف النشأة المادية والمعنوية تأثراً بالغاً، ويجد أن المجتمع يقف بصلابة متناهية في وجه أي تغيير، كما يجد الرقابة الشديدة على كل حركة من حركاته، والأهم من كل هذا يجد نفسه وكأنه يفكر ويتأمل داخل صندوق مغلق، كما أنه يجد أن النماذج التي تمد العقل بمادة التفكير والإبداع محدودة ونمطية، والخبرات محلية ضحلة ؛ وقد كان علماؤنا القدامى على دراية عظيمة بهذه المسألة، ولذا رحلوا

في طلب العلم، و لم يمنحوا الثقة العالية من أخذ العلم عن أهل بلده دون أن يغبرّ قدميه في لقاء الشيوخ و تطواف البلدان .

حين يغترب المرء عن بلده، فإنه يتمتع بعلاقات اختيارية، لا تفرض عليه من أحد، كما أن مجال الرزق أمامه يصبح أوسع، وفي عصرنا الحاضر، يغترب معظم الناس بحثاً عن تحسين أحوالهم المعيشية، والأهم من ذلك أن الغريب حين يكون مثقفاً فإنه يستطيع امتلاك رؤية أصيلة للعالم، ويكتسب من الخبرات، ويرى من النماذج ما لا يمكن أن يحصل عليه إذا ظل مقيماً في بلده .

فعلاً تتسع آفاقه وتتحسن درجة بصيرته، ويصبح أميل إلى الاعتدال والشفافية بما يكتسبه من حاسّة (المقارنة) ولا بد مع هذا من دفع الثمن، فنحن اتفقنا على أن الواحد منا لا يستطيع الاستحواذ على محاسن الإقامة في الوطن ومحاسن الاغتراب. في الغربة يضغط الشوق على المرء، ويؤرقه ألم فراق أهله وأحبابه. لا ريب أن المرء في غربته يبني صداقات كثيرة ، ويجد أحياناً من التكريم و الاعتراف به ما لا يجده في بلده، لكن يبدو أن جاذبية مسقط الرأس لا تقاوم . والمشكل أن المرء إذا طال اغترابه، وعاد بعد ذلك إلى بلده وجد نفسه غريباً !

أنا شخصياً استفدت من الغربة فوائد لا حدود لها ، وأشعر بمنة الله – عليّ – بسببها في كل حين ، وسوف يهون الخطب حين ندرب أنفسنا على تهميش المشاعر والذكريات القديمة، ونتذكر أن لكل شيء ثمناً، يجب دفعه عن طيب نفس . وهناك شيء عجيب فيه سلوى وعزاء، وهو

أن الغريب يحن إلى الرجوع إلى وطنه ،وينتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر في الوقت الذي يكون كثير ممن يعيشون في ذلك الوطن يبحثون عن فرصة لمغادرته، فسبحان الله ما أشد تناقض مطالبنا وما أشد الاضطراب الذي نعاني منه في تدبير أمورنا !! .

إذا كان المرء يعيش في وطنه أو خارجه من أجل مبدأ عظيم ومن أجل رسالة سامية، فهو في خير عظيم، ومباهجه ومسراته لا تنتعش من وراء العيش في مكان محدد وإنما من وراء تهيؤ الأسباب والظروف الملائمة لأداء الواجب والشعور بتقديم الخدمة الممكنة، وهذا ما أحمد الله على توفره .

ج - لدينا المثقف الذي يخاطب الجماهير، والمثقف الذي يخاطب النخب، ونفوسنا تتطلع دائماً إلى أن نصوغ خطاباً يجمع بين التأثير في النخب والتأثير في الجماهير في آن واحد، لكن يبدو أن ذلك غير ممكن . المثقف الذي يصنع الأفكار، ويستخدم المفاهيم الدقيقة لا يكون خطيباً جماهيرياً ولا محاضراً عالمياً، وذلك لأن سوية ثقافة الجماهير لا تسمح لهم بالتفاعل معه ، ولهذا فالذين ينفعلون بما يقوله المثقفون الكبار، ليسوا كثيرين، لكنهم من نوعية رفيعة . الخطيب الجماهيري والمثقف الشعبي يحظى بجمهور واسع جداً يبلغ مئات الألوف وأحياناً الملايين، لأنه يصوغ الخطاب الذي يتلاءم مع القاعدة العريضة، وهي قاعدة محدودة الثقافة، لكنه لا يستطيع صياغة خطاب يؤثر في الصفوة ،لأن ما سيقدمه إليهم سيبدو في نظرهم مكروراً وسطحياً وعقيماً . هذا هو الواقع، ولا ينبغي أن نقلق منه. فالذي يخاطب الصفوة لا يحظى إلا

بالقليل من الوجاهة الاجتماعية، لكن له في نفوس المثقفين والمفكرين مكانة خاصة، وعليه أن يرضى بها . والذي يخاطب الجماهير، ويؤثر فيهم، يبلّغ أفكاره إلى عدد كبير من الناس ، وحسبه ذلك . وجهتي في هذا الشأن هي : (**اعملوا فكل ميسرٌ لما خلق له**) والأمة في حاجة إلى الجميع ما داموا يعملون في إطار الأصول والمبادئ الكلية . أنا شخصياً أحاول التوسط دائماً مع مراعاة الفرق بين الصفوة وغيرهم، حيث إني أعتقد أن ساحة الصحوة تحتاج إلى الكثير من الأفكار الكبيرة والمثمرة التي يمكن استيعابها من قبل العاملين في الحقل الدعوي، وفي الوقت نفسه نحن في حاجة إلى إيصال هذه الأفكار إلى أكبر شريحة ممكنة لكن بأسلوب مبسّط ، قدر الإمكان. كتبت للصفوة والمثقفين عدداً من الكتب، مثل فصول في التفكير الموضوعي وسلسلة (**المسلمون بين التحدي والمواجهة**) في خمسة أجزاء و(**تجديد الوعي**) و(**تجديد الخطاب الإسلامي**) في جزءين وغيرها، وهذه الكتب تناسب خريجي الجامعات . وكتبت لمتوسطي الثقافة عدداً من الكتب مثل (**دليل التربية الأسرية**) و(**اكتشاف الذات**) و(**القراءة المثمرة**) و(**بناء الأجيال**) و(**المتحدث الجيد**)، وهذه تناسب طلاب الجامعات ومن يقترب منهم . هل هذه خطة صحيحة ؟ بعض المثقفين لا يرتضي هذا المنهج، ويرى فيه تشويشاً على الصورة الذهنية التي رسمها الناس عن الكاتب والمثقف . وهذا لا يخلو من صواب، لكن وجهة نظري تقوم على اعتقاد أن الأفكار لا تستمد قيمتها من صوابها وأصالتها فحسب، وإنما تستمدها كذلك من قدرتها على الانتشار ووصولها إلى أكبر عدد ممكن من الناس . أما المثقف الذي لا يهتم بهذه المسألة فخير له – ولا شك

- أن يخاطب شريحة واحدة عليا أو دنيا، فذلك أعون له على امتلاك أدوات التأثير فيها والتواصل معها .

د - لدينا نزوع شديد إلى الشمولية ، فالتاجر يتمنى أن يكون لديه ألف مؤسسة، ليتاجر في عشرة آلاف صنف، والجماعة الإسلامية تود لو أنها تستطيع فتح المدارس والنجاح في الانتخابات، والسيطرة على المؤسسات المالية .. ولا شك أن بعض الأشياء قابل لأن نجمع بينها دون وجود مشكلات، لكن بعضها يأبى ذلك، وسأضرب مثالاً على ذلك: بعض الجماعات الإسلامية وغير الإسلامية حاولت الجمع بين تأثيرها الفكري والثقافي والأخلاقي وبين نفوذها السياسي وأحياناً النفوذ العسكري، فهم يظنون أنه لا بد للحق من قوة تحميه (**وهذا حق على بعض المستويات**) ولهذا أعدوا أنفسهم للصدام المسلح مع حكوماتهم، وبعضهم لم يقترب من السلاح ولا العنف لكنهم وصلوا إلى سدة الحكم على أمل أن يستخدموا ما بين أيديهم من سلطة في نصرة الدين، وهذه نية حسنة، يؤجر صاحبها عليها، لكن إذا تحاكمنا إلى مبدأ (**عدم القدرة على الحصول على كل ما نريد**) فسنجد أن الجمع بين النفوذ الروحي والسياسي والجمع بين النفوذ العسكري والدعوي من الأمور الشاقة جداً و غير المثمرة، والتجربة الشيوعية تقدم درساً بليغاً لمن يحب أن يفهم، فقد ظلت المبادئ الشيوعية والاشتراكية شديدة الجاذبية إلى أن وصل حملتها وسدنتها إلى الحكم، حيث أخذت السياسات والممارسات والانحرافات .. . تقضي على لمعان المبادئ إلى أن سقط الجميع في الهاوية . الإسلام مجموعة قيم، والقيم لا تفرض، وإنما تجذب الآخرين إليها من خلال تجسدها في سلوك

المؤمنين بها، وحين نحاول فرضها على الناس، فإنهم ينفرون منها، ومن الذين يحاولون فرضها . هكذا الناس والتاريخ مملوء بالشواهد، وكذلك الواقع . وحين يشتغل الدعاة بالسياسة، فإنهم يصيرون بعض ما يدعون إليه موضع جدل وفي أفواه الإعلاميين والمعارضين ،و بذلك تصبح بعض القيم الإسلامية عرضة للاستهزاء والتشكيك والمحاربة . ليشتغل أهل الدعوة بالدعوة وأهل التنظير بالتنظير، ومن يجد في نفسه الكفاءة لخوض معترك السياسة بالسياسة ،لا مانع من ذلك ما دام يتم في إطار المشروع، لكن الشيء الضار هو الخلط ومحاولة الاستحواذ على كل شيء . وقد اخترت لنفسي البعد عن السياسة وملابساتها لأني وجدت أن الانشغال بالكتابة والدعوة والتعليم أليق بإمكاناتي وشخصيتي، ومن الله الحول والطول .

هـ – من غير الممكن أن نحصل على كل ما نريد وبأرقى، المواصفات التي نريد إلا إذا كانت إمكاناتنا غير محدودة، أي أن علينا أن نختار بين الكم والكيف، لأن التوسع في أحدهما، يكون دائماً على حساب الآخر. كثير من الناس لا ينتبه إلى هذه الحقيقة، ولهذا فإن مطالبهم متناقضة . إن وعي معظم المسلمين مفتون ب (الكم) فنحن نحب دائماً الأكثر والأكبر، إنهم لا يملون الحديث عن أمة المليار وثلث المليار نسمة، ولا عن المساحات الشاسعة من الأرض التي يملكها المسلمون، كما لا يملون عند ذكر المنجزات من التغني بالأعداد . أعداد وطلاب العالم الفلاني، وأعداد أتباع الجماعة الفلانية وأعداد أبيات الشعر التي يحفظها فلان . أما الحديث عن النوعية (الكيف) والجودة والتأثير، فهذا لا يكاد يلقى الاهتمام من أحد . وقد أشار بعض الباحثين إلى أن (الكثرة) لم تُمدح في

أي موضع من القرآن الكريم، ويدلنا حديث (القصعة) على أن مشكلة الأمة في آخر الزمان ليست في قلة الأعداد، وإنما في نوعيتهم : قالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال: لا، أنتم يومئذ كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل . إن عصرنا هو عصر (الكيف) وليس عصر (الكم)، عصر الأشياء الصغيرة الفعالة، وليس عصر الأشياء الكبيرة المترهلة . (١) وجهتي في هذا هي الجنوح إلى (الكيف) والاهتمام بالجودة والنوعية والتأثير والنتائج والمخرجات، وليس بالأشكال

والأحجام والكميات، إن نفوذ اليهود في العالم أعظم بكثير من نفوذ المسلمين مع أنهم في العالم في حدود خمسة عشر مليوناً أي واحد على ألف من المسلمين !!

وقد حصل العلماء الألمان على (جائزة نوبل) ستاً وسبعين مرة، ولم يحصل العلماء المسلمون عليها ولا ست مرات !!

سأظل أناصر (الكيف) لعل الوعي المسلم يتفتح عليه، وننتقل إلى الاهتمام بالتطوير والتحسين عوضاً عن الاهتمام بتكديس الأشياء الرديئة التي يفسد بعضها بعضاً ! .

٤ - أيقنت بما رأيت في مجالات عديدة أن النمو هو وليد الحركة، ووليد التفاعل، ومن الواضح أن الموت يوقف نمو الإنسان، ويجعله يفقد الصلة بمحيطه، كما يفقده إرادة التفاعل، وهكذا فقد استقر في خبرتي أن

---

(١) ذكر لي أحد الجراحين أن هناك (بطاريات) تركب لبعض مرضى (باركنسون) وقيمة تلك البطاريات في حدود خمسة وثلاثين ألف دولار !! .

الشيء الذي نهمشه نخسره ،لأننا بالتهميش نحرمه من النمو السوي، ونحرمه من التفاعل الذي هو سبب للنمو، وهذه بعض الأمثلة التي توضح هذا المفهوم .

أ - بعض الأسر تنظر نظرة دونية إلى أحد أطفالها بسبب إعاقة لديه، أو تخلف عقلي أو بسبب ما لديه من أخلاق سيئة غير معتادة، إنها تهمشه، فلا تشركه في شورى الأسرة، ولا تحفزه على النجاح، ولا تعمل على تأمين جامعة جيدة له .. إن هذه الأمور هي التي تؤدي إلى أن تخسر الأسرة هذا الولد لأنها عملت فعلاً على إقصائه ليصبح أشبه بورقة انفصلت عن غصنها، فكان مصيرها هو الذبول، ثم التفتت . ويحصل مثل هذا في كثير من الفصول الدراسية، حيث يجلس بعض الطلاب في الزوايا وفي الصفوف الخلفية، هؤلاء الطلاب همشوا أنفسهم، فخسروا الاستفادة من المحاضرات والدروس التي يلقيها الأساتذة، وأيضاً فإن بعض المدرسين بتفاعل مع الطلاب المجتهدين الذي يجيبون على الأسئلة، ويسألون أساتذتهم عن الغوامض . المهم أن الطلاب غير المتفاعلين يتم تهميشهم، ومع التهميش تقع الخسارة، و إن كان تحديد الخاسر هنا بدقة قد يكون متعذراً .

ب - حين يصنف المجتمع قبائله وعوائله إلى درجات مختلفة، فإن بعضاً منها يُهمَّش لأنه تم وضعه في أسفل السلم الاجتماعي، وهذا التهميش يضعف روح المبادرة لديه، ويقلل من شجاعته الأدبية، ويدفعه دفعاً في اتجاه الوقوع في أمور غير لائقة، ومن هنا كان مقياس التفاضل في الإسلام قائماً على التقوى والإحسان للخَلق، فالأتقى والأنفع لأهله

وجماعته وبلاده يكون في أعلى السلم، وهذا في الحقيقة محفز عظيم على نسيان الماضي ومحاولة إثبات الذات من خلال الجهد الحاضر، وليس اتكاءً على أمجاد السابقين، وقد عانى الإسلام طويلاً في هذه المسألة مع الناس، وما زال يعاني . التهميش يعني - كما ذكرنا - تقليل التفاعل، وحين يقل تفاعل الإنسان مع أهل بلده، فإن مشاعره الوطنية تخبو و أنشطته الخيرية والإصلاحية تتراجع، فالتهميش يعني الخسارة في رأس المال البشري والخسارة في السمو الإنساني .

ج - لم تلق المرأة في معظم الأحيان ما تستحقه من العناية، فالجهود التي بذلت لجعلها أماً صالحة وزوجة ممتازة، وداعية مؤثرة ومصلحة اجتماعية فاعلة، جهود محدودة للغاية وفي بعض المناطق والبلدان ليس هناك أي جهد يمكن التحدث عنه . الصحوة الإسلامية المباركة صرفت خلال الأربعين سنة الماضية ٨٠ ٪ من جهودها لصيانة المرأة والحفاظ على حجابها والتفكير في شروط ممارستها للعمل، وبذلت ٢٠ ٪ من تلك الجهود في تنميتها وإصلاح وضعها العام، وكان المفروض العكس، لأن القلوب حين تعمر بالإيمان واليقين، ولأن العقول حين تمتلئ بالأفكار والمفاهيم الصحيحة والخيرة، فإن المظهر والسلوك يصبح صدى للداخل، وهذا هو الذي ركز عليه القرآن الكريم تركيزاً منقطع النظير. إن عدم مساعدة المرأة على القيام بدورها أدى إلى تهميشها، ونحن حين همشناها لم نخسرها فحسب، بل حصل شيء آخر، وهو خسارتها لذاتها أيضاً، فكثير من المسلمات اليوم يعشن من غير طموح ولا هدف ولا اهتمام بشيء سام، بل تحولن إلى عبء على الأمة من خلال انفتاح

شهية الاستهلاك لديها إلى حدود تجاوزنَ معها كثيراً وضع غير المسلمات، ولا بد من معالجة هذه الوضعية بالسرعة الممكنة، وقد يكون التوسع في الجامعات والمعاهد والمراكز والأنشطة الدعوية والاجتماعية هو الحل المبدئي . الإبداع المطلوب منا هو تفعيل دور المرأة مع بقاء ذلك الدور داخل إطار الأحكام الفقهية والرؤية الشرعية . ونحن في حاجة إلى أن نقيم مئات الجلسات للعصف الذهني ومئات الندوات والمؤتمرات على امتداد عالمنا الإسلامي من أجل اكتشاف السبل والأدوات المساعدة على تخليص المرأة من وضعها الحالي ؟

د - يكوِّن الإيمان، وتكوِّن التربية في أعماق المسلم شيئاً اسمه (الضمير) أو الوازع الداخلي، وهو في الحقيقة بمثابة (عضلة أخلاقية). كلما أردنا القيام بعمل خيرٍ انبعث في أعماقنا صوت نوراني يحث ويشجع ويرشد إلى الاحتساب وطلب الأجر من الله تعالى . وحين نهم بمعصية فإن ذلك الصوت يجلجل بالتحذير والتخويف من الوقوع في الإثم. ويظل هذا الصوت في حالة نشاط ما دمنا نستمع

إليه ونتفاعل معه، لكننا في بعض الأحيان نعرض عن سماعه، فيخفت، فإذا أدمن المرء الإعراض عنه اختفى، وصار في قبضة الشهوات والأهواء ! بعض الناس أعطى ضميره إجازة مفتوحة ،فصار من غير ضمير، وانقلب إلى وحش كاسر ! نحن في حاجة إلى أن لا نخسر ضمائرنا وذلك لا يكون إلا من خلال التفاعل معها والاستجابة لها ، وهذا من جهته يحتاج إلى مجاهدة في ذات الله من أجل المزيد من المبادرة للخير، والمزيد من الوقوف عند حدود الله تعالى .

مكتبة الملك فهد الوطنية

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه إلى السماع لصوت الضمير، مما يعد تدعيماً للرقابة الذاتية، وذلك كما في قوله : (**البر ما سكنت إليه النفس ،واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولا يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون**) [١]

٥ - بعض طلاب العلم اهتم اهتماماً بالغاً بالحفظ، فهو يحمل في صدره الكثير من النصوص والمتون والمنظومات، وبعضهم يحمل في صدره العديد من الشروح ! ولا يستطيع أحد أن يقلل من شأن الحفظ ومن حاجة طالب العلم إليه، لكن الذي يؤخذ على هؤلاء أنهم حفظة وحسب، فقد همشوا ملكة الخيال لديهم، كما همشوا ما أكرمهم الله به من القدرة على التحليل والاستنتاج وفهم الأسباب والجذور .. فترى الواحد منهم لا يحسن فهم واقع الأمة، وليس لديه أي رأي أو رؤية في كيفية تغييره وإصلاحه، بل إن بعضهم مرتبك في تنمية شخصيته وتربية أبنائه .. إن لديهم علوماً ومعارف لا يستطيعون توظيفها في نشر الخير والصلاح، كما أنهم لا يستفيدون منها في تحسين وضعيتهم الدنيوية وأمور معاشهم، وأنا أعتقد أن المعرفة تكتسب أهميتها من مدى اتصالها بحياة البشر وقدرتها على إرشادهم وتحسين قراراتهم . قد حفظت الكثير في صغري، واستفدت منه فوائد لا تقدر بثمن، ثم تبين لي أن ذلك لا يغني عن امتلاك رؤية منهجية للحياة والواقع والمستقبل، ولا بد من استخدام الخيال الخصب لفهم ما نفقد من المعطيات الصلبة التي تشرحه وتوضحه.

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد .

وقد حصلت على خير عظيم من محاولاتي الدائبة في هذا السياق، وإن كان ما يزال أمامي الكثير من العمل ؛ والله المستعان .

٥ـ لو سئلت عن الشيء الذي نحتاج إليه أشد الاحتياج، وعن الشيء الذي نطلبه، و لا نكاد ندركه، ونبحث عنه، ولا نكاد نجده ـ لقلت : إنه التوازن والاتزان والاعتدال وإعطاء كل ذي حقٍ حقه . أشعر أحياناً أني ميال إلى التطرف في أمور كثيرة، ثم أجد أن التطرف والغلو قد يكونا شيئاً كامناً في الإرث الجيني للبشرية، وقد يكونان الثمرة المباشرة لعجزنا عن رؤية كل أجزاء الصورة والثمرة المباشرة لعجزنا عن السيطرة على عواطفنا، والثمرة المباشرة لخضوعنا لأهوائنا وشهواتنا . لو أردنا أن نذكر مئة مثال على معاناتنا من الغلو وفقد التوازن لوجدنا أكثر منها، لأن فقد التوازن يشكل أصلاً في حياة كثير من المسلمين، ولعلي أشرح هذه القضية المهمة عبر المفردات الآتية :

أـ نحن جميعاً نبدو في بعض الأحيان غير متوازنين في مواقفنا و سلوكاتنا و طروحاتنا، وهذا لأن التوازن المطلق وفي كل وقت يحتاج إلى أمور خارج إمكانات البشر ؛ إنه يحتاج إلى معرفة مطلقة بالأولويات، كما يحتاج إلى صواب مطلق في إدراك كل أبعاد الصورة، واتخاذ القرارات، كما يحتاج إلى سيطرة كاملة على الرغبات، وليس لدينا أي واحد من هذه الأمور ؛ ولهذا فإني عودت نفسي أن أنظر إلى توازن مواقفي ومواقف من حولي على أنه شيء نسبي، وأحياناً ظرفي ؛ ومن هنا فإن علينا أن نلتمس الأعذار لبعضنا .

ب ـ في المجال الدعوي رأينا من يهتم بالجانب الروحي وتزكية النفوس، ولهم في ذلك أياد بيضاء وجهود كبيرة مشكورة، لكنهم لا يأبهون كثيراً للضوابط الشرعية، ولديهم نوع من الاستخفاف بصواب الأدلة وصحة الأحاديث، و لهذا فإن لديهم العديد من البدع والمخالفات الشرعية، التي لا يقرهم عليها أي فقيه من أي مذهب . في المقابل هناك فئات لزموا حدود الشريعة وأسدوا للأمة خدمة جلى في تحرير الدليل ونشر الوعي بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، وإحياء السنة، لكن بسبب نفورهم من الفئة الأولى وما لديها من بدع، ابتعدوا مسافات عن الرقائق والاهتمام بما هو من قبيل الروحانيات، فأصيبوا بالجفاف الروحي، وقل اهتمامهم ببعض الأمور الجوهرية مثل ذكر الله ـ تعالى ـ ومراقبته، والشوق إلى معرفته ، ولا شك أن الفئة الأولى تشتمل على فئات، تتباين فيما بينها في الأمور التي ذكرناها قليلاً أو كثيراً، كما أن الفئة الثانية كذلك . وما أحوج هذه الفئة وتلك إلى أن تتحسس ما لديها من نواقص، وتصحح ما لديها من أخطاء، وإلا أصبحت كل واحدة منهما أسيرة لردود الأفعال

ج ـ بين الدعاة والمفكرين والكتاب المسلمين شريحة واسعة، تعتقد أن مشكلة الأمة الأساسية تكمن في التآمر الذي يمارس ضدها، وأن الغرب لو تركنا وشأننا لكنا في أحسن حال . وفينا أيضاً من يعتقد بأن الأمة إذا تخلت عن التفكير في حل مشكلاتها عن طريق استخدام القوة والعنف، وتخلصت من قصورها الذاتي، واستطاعت استيعاب وجهات نظر الآخرين، فإن السلام العالمي سوف يعم، وسوف تحصل على حقوقها من خلال التفاهم الدولي والمؤسسات الأممية، وكلا الفريقين بعيد عن

التوازن. لا شك - كما أشرت من قبل - أن العلة داخلية، لكن السلام العالمي لن يعم ما دامت شركات السلاح تتحكم بقرارات بعض الدول الكبرى، كما أن الأطماع الاستعمارية القديمة مازالت تجيش في صدور الأقوياء، وهي تعبر عن نفسها بأساليب مختلفة، وما يجري في العراق وأفغانستان وغيرهما شاهد على ما نقول . إن عالم اليوم لا تحكمه المبادئ ولا تحركه القيم، ولكن الذي يحكمه ويحركه هو المصالح والمنافع وشهوة النفوذ، لكن حين نكون أقوياء بما فيه الكفاية، فإننا ندفع عن أنفسنا الكثير من الضرر والحيف .

د- نحن في حاجة إلى الرؤية والخارطة، كما أننا في حاجة إلى العمل والحركة، وبما أن العلم سابق للعمل، فمن الطبيعي أن نفكر ونتأمل قبل أن نتحرك ونتصرف ؛ والحقيقة أن معظم الناس يمارسون هذا، لكن بقدر غير كاف . الخلل في هذا الشأن موجود لدى فئتين من العاملين في الساحة الدعوية :

أما الفئة الأولى : فتفكر بعيداً عن الواقع، فأنت ترى فيها من يريد استعادة الماضي بحذافيره في الشأن السياسي والتربوي والتعليمي والاجتماعي وهم ينطلقون من رؤية، تقول : ما دامت أمجاد هذه الأمة قد تحققت في حقبة سابقة، وما دام أفضل رجالها، قد عاشوا في الماضي، فلماذا لا تكون نهضتنا الجديدة في تكرار تجارب السابقين ؟ مع أننا نعتقد أن من سنن الله -تعالى- في الخلق ألا تتسع مرحلة سابقة لمرحلة لاحقة إلا أننا نأخذ على هؤلاء أنهم لم يستطيعوا تطبيق أي نموذج في أي مجال حتى يثبتوا لنا صحة نظريتهم . ومن هذه الفئة أيضاً من يبدي التبرم بكل

شيء، وينقد أعمال وتوجهات السابقين واللاحقين، ولكن لم يسجل أي قصة نجاح، ولا ابتدع أي أسلوب دعوي، أو إصلاحي جديد. وقد فات هؤلاء وأولئك أن للواقع مما نعاته وتأبياته التي لا تظهر إلا من خلال العمل والممارسة . نعم هناك قوى مضادة خفية تقف دائماً في طريقنا، ولا نعرف تلك القوى إلا من خلال الاحتكاك بها، ولا نستطيع الاحتكاك إلا ذا دخلنا مرحلة التطبيق لما لدينا من أفكار ومشروعات وخطط : إن من السهل أن نقول : لماذا لا تنبني الحكومة الفلانية مصانع متقدمة للسلاح ؟ ولماذا لا توفر إمدادات المياه بشكل كاف ؟ ولماذا المدارس ليست مجهزة بالمختبرات والمعامل الضرورية ؟ كما أن من السهل أن نقول : لو أطلقت أيدينا في المجال التربوي لأحدثنا فيه انقلاباً شاملاً، لو استلمنا وزارة الأوقاف لعزلنا ثلاثة أرباع الخطباء ؛ ولجعلنا خطبة الجمعة مصدر وعي شامل للناس . فإذا تولى واحد ممن يقول هذا منصباً في مجال من المجالات، يستطيع من خلاله فعلاً التغيير والإصلاح، فإنه لا يقوم بشيء يذكر مما كان يقوله، ويبدأ بذكر العقبات وبالشكوى من سوء الأحوال، أو يبدأ بإطلاق الوعود الجوفاء التي لا يرى أي منها النور. هذا كله نابع من الظن أن المشكلة هي مشكلة إرادة ، وبمجرد أن تتوفر الإرادة يحدث كل شيء ! ومع أننا نعتقد أن مشكلة كثير من الناس هي مشكلة إرادة فعلاً ، وليست مشكلة قدرة ، إلا أن الصحيح أيضاً أن إمكاناتنا تظل محدودة، وتظل هناك إصلاحات وتغييرات نتمناها، ولكن لا نجد الأدوات والموارد المطلوبة لتحقيقها . لا أريد هنا التشنيع على النقد، ولا كبت الطموحات والتطلعات المتوثبة، لكن أريد أن أقول : إن

كثرة الكلام من غير مماسة الواقع وخوض غماره، تورث الإحباط، وإن الذي يقول كل شيء، ويطالب بكل شيء، لا يختلف كثيراً عن الذي لم يقل أي شيء.

أما الفئة الثانية: فتتضايق من التنظير، وتعد التفكير نوعاً من تضييع الوقت، ولطالما سمعت من يقول لي في بعض المحاضرات : كفانا تنظيراً، نحن في حاجة إلى العمل، الكلام لا يوفر لنا الخبز، وهكذا . وهذه الفئة تفتقر كسابقتها أيضاً إلى التوازن، إذ إنني أعتقد أن ساحات الصحوة، ومجالات الحياة المختلفة لدى الأمة، فقيرة بالمفكرين العظام والأفكار الإصلاحية الكبيرة، فأين الذين تترجم كتبهم إلى اللغات العالمية؟ وأين الذين جاؤوا بنظريات وتحليلات للواقع ورؤى للمستقبل، تم الاعتراف بها على نطاق واسع ؟ إن مهمة التنظير أن يقدم الأسباب الحقيقية للأزمات والمشكلات، وأن يقدم أيضاً مقاربات لجذور تلك المشكلات وأطوارها التاريخية وشرحاً للعلاقات التي تربط بين المشكلات السياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية، كما أن من مهمته أيضاً أن يدل على المعالم الأساسية في طريق الخلاص . وإذا استطاع المفكر أن يرشدنا إلى التجارب العالمية في معالجة المشكلات المناظرة، فإنه يكون قد قدم للأمة خدمة كبيرة. وإذا كان من يطالب بالتقليل من التنظير يعرف نوعية الحلول المطلوبة فلماذا لا يقوم بتنفيذها ؟ إذ من الواضح أن ممارسة فلان للتنظير لا تمنع غيره من العمل . ثم إن هؤلاء الذين يتضايقون من كتابات المفكرين والتي يصفونها بالبرودة والسفسطائية ـ لا يقومون من مشكلة حتى يقعوا في غيرها، وتصوراتهم عن الإصلاح فجة وأحياناً عقيمة .

وجهتي في هذه المسألة تقوم على البحث عن التوازن في هذه القضايا من خلال الترحيب بالأفكار الجديدة والتعامل مع الاختلافات بسعة صدر إلى جانب بذل الجهد في إيجاد أطر تنفيذية، تكون بمثابة مختبر لتلك الأفكار . ويجب أن نحاول استخلاص العبرة من الإخفاق من أجل تغيير الأفكار التي تمت تجربتها .

٦- الهم الذي يسيطر عليّ، ويدفعني إلى أن أقرأ في علوم شتى، هو العثور على أفكار عظيمة تحرك عقلي، وتطور رؤيتي، وتجعلني أفضل إدراكاً لما يجب عليّ القيام به . إنني شديد الولع بالأفكار المبتكرة ،و شديد الاهتمام بأقلمة الأفكار وتحويرها لتصبح متوافقة مع المبادئ الكبرى والأطر العامة التي أؤمن بها . إنني أؤمن إيماناً عميقاً بأن كبار المفكرين يطلقون العبارات المدهشة والرائعة والمعبرة عن عبقرية ونفاذ بصيرة، لكنهم يصدرون دائماً عن رؤية جزئية، وخبرة محدودة، حتى المفكر المسلم فإنه لا ينجو من ذلك، ولا يتعداه، ولكن له من المنهج الرباني الأقوم ما يعصمه من أن يبعد النجعة، أو يحرث في البحر، ولهذا فإن أمامنا دائماً فرصة لنفكر بطريقة أفضل، ولنكتشف ما هو أثمن وأقيم. إن الظروف الصعبة التي يعيش فيها معظم المسلمين جعلتهم يفكرون وهم مضغوطون وملاحقون، ولهذا نبدو دائماً وكأننا في عجلة من أمرنا، وهذا جعل الكثيرين منا يهتمون بالمحسوس والملموس والسريع والمادي، إننا أشبه بجائع لم يذق الطعام منذ يومين، كل همه شيء يطبخ، أو يمضغ، وهو غير مستعد لسماع أعظم مقطوعة شعرية أو رؤية أجمل لوحة ، إن لديه دائماً شيئاً أهم . وهكذا نحن اليوم نزهد في الرؤى والأفكار

والمقولات والتحليلات، ونبحث عن الإنجازات السريعة مهما كانت صغيرة، وهذه الوضعية تسبّب لي أذى بالغاً . قالوا : إذا أعطيتني سمكة، فقد هيأت لي طعام يوم، وإذا علمتني كيف أصيد، ساعدتني على الحصول على طعام كل يوم، وإذا علمتني كيف أصنع سنارة، فقد فتحت لي طريقاً إلى الثراء .أنا أريد أن ننشر فكرة تعلم الصيد وصناعة السنارة، أريد أن نحتفي ونهتم بالمهارات الجديدة والأفكار التي تكسر الجمود، وتساعد على حل المشكلات، وتجعل الإنسان المسلم أقرب إلى الله – تعالى – . الأمة في حاجة إلى الأفكار والمفاهيم مثل حاجتها إلى الدواء والماء، لأنها هي التي تساعد على توفير ما هو أهم وأعظم من الدواء والماء والهواء، إنه العقل المنفتح والطموح الكبير والثقة غير المحدودة بكرم الله ولطفه ومعونته، وهذا إلى جانب الإيمان بأن ما ينتظرنا من الإبداع والتقدم والإنجاز وخدمة الدين والملة والأمة، هو أكبر بكثير مما تم إنجازه والحصول عليه . إن الفكرة الأصيلة مثل البذرة الطيبة، إن لم تنبت، وتورق اليوم، فستورق غداً. لدينا كثير من الشباب الجاد والمتوثب والمنتظر لما يفيض به ، يراع مفكري الإسلام وعلمائه ومرشديه، وما يفوهون به، حتى يأخذه، ويجعل منه أداة لتحسين أدائه وعطائه، وتطوير شخصيته، وهذا يرتب علينا مسؤولية أخلاقية جسيمة . إن المعنويات أقوى من الماديات والأفكار أهم من الوسائل والأموال، لكن إذا أعطيت الفرصة للعمل .

٧ – ثمة شيء يثير لدىّ الكثير من التساؤل، كما يثيره لدى غيري، وهو معرفة الطبيعي من غير الطبيعي . في الأمور الصغيرة والمحسوسة نستطيع معرفة ذلك بسهولة، فنحن نعرف أن الجسم حين ترتفع درجة حرارته إلى (أربعين) لا يكون في حالة طبيعية، كما نعرف أنه ليس من

الطبيعي أن تضرب المرأة زوجها في كل يوم . لكن إذا صرنا إلى أوضاعنا العامة وأحياناً الخاصة، وأخذنا في فهم أمور أكثر تعقيداً، فإننا نجد الارتباك هو سيد الموقف .

وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن :

أ – الشيء الطبيعي ليس هو الشيء الصحيح، والشيء غير الطبيعي ليس هو الشيء الخاطئ، إنما يكون الشيء طبيعياً حين يكون وجوده أو حدوثه شيئاً مألوفاً أو شيئاً لابد منه بسبب ما نعرفه من طبيعته أو ما نعرفه من سنن الله – تعالى – في خلقه، وعلى سبيل المثال، فإنك حين تشتري سيارة جديدة، وتتوقف عن العمل بعد يومين، يقال لك : إن قماشات المكابح تحتاج إلى تغيير، فإن هذا شيء غير طبيعي وسيء لأن العمر الافتراضي لهذه القطع يدل على أنها تظل تعمل مدة أطول بكثير من هذه المدة، ولهذا فإننا نقول : هذه السيارة فيها (خطأ مصنعي) .لكن خراب قماشات الكوابح بعد أن تسير السيارة مسافة ثمانين ألف ميل، يكون أمراً سيئاً، لكنه طبيعي، ولهذا فإن علينا أن نبدلها عن رضا وطيب نفس، وهذا شيء يشبه تماماً ما نجده من انحناء الظهر عند ابن السبعين، فإذا رأينا ابن الثلاثين وقد انحنى ظهره، قلنا هذا غير طبيعي وهكذا .

ب – معرفة الطبيعي من غير الطبيعي أمر جوهري ومطلوب من أجل تحديد مواقفنا تجاه الأشياء والأحداث . الدعاة والمصلحون هم أحوج الناس إلى هذه المعرفة، وذلك حتى يرتبوا سلّم أولوياتهم الإصلاحية، وحتى يعرفوا الحدود الفاصلة بين الممكن وغير الممكن . كان أحد الحكماء يدعوا قائلاً : "اللهم امنحني القوة لأغير الأشياء التي أستطيع تغييرها،

والقبول بالأشياء التي لا أستطيع تغييرها، وامنحني الحكمة التي أفرق بها بينهما" .وأنا أدعو الله أن يمنحني وإخوتي القراء البصيرة لمعرفة الطبيعي من غير الطبيعي .حين يكون وجود الشيء طبيعياً، ولكنه خاطئ، فإن الخلاص منه يحتاج إلى جهود كبيرة، ومع ذلك فقد لانستفيد إلا القليل. أما الشيء غير الطبيعي فإننا سنجد عند إرادة تغييره الكثير من الأدوات الجيدة التي نستخدمها، كما أن كثيرين من الناس سوف يتطوعون للمساعدة، وهذا واضح جداً وملموس، فحين تكون نسبة الفقراء في مجتمع ما ١٠٪ مثلاً فإن هذا الأمر سيكون طبيعياً لأن معظم دول العالم فيها مثل هذه النسبة وأكثر، وهي لم تكن عامة إلا لأن الخلاص النهائي من الفقر لدى أي أمة يعد في غاية الصعوبة بسبب القصور الذاتي لدى بعض الناس وبسبب ظروفهم الشخصية الخاصة جداً . وحين تدعو منظمات الإغاثة الدولية للمساعدة من التخلص من الفقر لدى تلك النسبة، فإن الاستجابة ستكون شبه معدومة، لكن حين تقع مجاعة في بلد أو إعصار مدمر يشرد مئات الألوف ، فإن المساعدات تأتي من كل مكان لأن هذا الوضع غير طبيعي .

ج - طالما تساءلت، ولم أجد الجواب الشافي والقاطع : لماذا لا نستطيع دائماً التفريق بين الطبيعي وغير الطبيعي مع أننا نحتاج إلى هذه المعرفة أشد الاحتياج ؟

ثم تبين لي أن السبب هو ذلك الوسط ذو التغيرات المتدرجة التي تفصل بينهما . وقد يكون السبب أننا نختلف أحياناً في تعريف الطبيعي من غيره، وسأضرب مثلاً يوضح هذا وذاك : هل وجود الزنا في المجتمع

الإسلامي شيء طبيعي ؟ قد يأتي من يقول لا يمكن للزنا أن يكون في المجتمع الإسلامي شيئاً طبيعياً ، وإلا نكون كمن يقر بوجود الفاحشة، أو يشجع عليها . لكن يأتي من يقول : إن الذين نسميهم (مسلمين) ليسوا على درجة واحدة من الالتزام، وقد يكون فيهم من لا يعرف أن الزنا حرام (١)، والدليل على أن وجود الزنا طبيعي وجوده في خير مجتمع على الإطلاق : مجتمع الصحابة –رضوان الله عليهم– في المدينة المنورة . بعد ذلك نقول : إذا صح أن تنقية المجتمع المسلم من (الزنا) على نحو كامل شيء عسير جداً أو مستحيل، فما النسبة التي تجعل وقوع هذه الفاحشة، يظل في حيز الطبيعي ؟ لنقل – جدلاً – أننا اتفقنا على أن وجود الزنا يكون طبيعياً إذا كان في حدود (١٪)من مجموع المجتمع، فإذا كانت نسبة الزناة هي (١/٢٪) فهل هذه نسبة غير طبيعية ؟ طبعاً سنختلف لأن الفارق بين النسبتين هو اثنان في الألف، وهذا شيء غير ذي قيمة في المسائل الإنسانية والاجتماعية . وإذا اختلفنا . في هذه النسبة، فمن الممكن أن نختلف في نسبة الـ (٥٪) أيضاً بل وقد نختلف في نسبة الـ (١٠٪) وهكذا .

د – المشكل أن أمة الإسلام من أفقر الأمم في امتلاك (الأرقام) التي تدل على إنجازاتها وصلاحها، وكذلك هي فقيرة في الأرقام التي تشير إلى أزماتها ومشكلاتها . وهذه الظاهرة قديمة قدم هذه الأمة، فالمؤرخون المسلمون لم يتحدثوا عن نسب المصلين أو المزكين أو الذين يجتنبون

(١) في بعض المجتمعات الإسلامية فعلاً من لا يعرف أن الزنا حرام، حيث إن بعض القبائل المسلمة، ترى أن من إكرام الضيف أن ينام مع أخت صاحب البيت أو ابنته !! .

شرب الخمر وأكل الربا في أي مجتمع إسلامي أو في أي حقبة زمنية، إنما هناك كلام عام ومزاجي وتقديري ليس أكثر . وهذا يعني أن الوصول إلى تعريف – ولو كان تقريبياً–

للطبيعي وغير الطبيعي، بالإضافة إلى توفير الأرقام الدالة على حجم الظواهر المختلفة، يشكل البداية لهذه المعرفة .

هـ – قد يقول أحد القراء الكرام مالي ولهذا التنظير، وهذا الصداع، وهل تريد من كل واحد منا أن يكون مفكراً كبيراً أو مصلحاً عظيماً، أم ماذا تريد ؟! .

أنا لا أريد من كل القراء أن يكونوا منظّرين – وإن كنت أتمنى ذلك – لكن أريد من كل مسلم أن يكون له دورٌ ما في إصلاح حال الأمة، وحتى يمارس هذا الدور، فإنه في حاجة إلى أن يعرف كيف يفكر المصلحون والمنظرون، وأن يعرف العقبات المعرفية والفكرية التي تعترض سبيلهم . إن الصفوة الخيّرة من هذه الأمة تملك درجة حسنة من الاستنارة، لكن وجود صفوة مستنيرة لا يجدي كثيراً، إذا لم يكن لدى أبناء الأمة جميعاً درجة – ولو متوسطة – من الاستنارة العامة، فالجهود الإصلاحية التي لا يسهم فيها معظم الناس تتعثر، ويكون إجهاضها سهلاً . وإني لأرجو الله – تعالى – أن يجعل هذا العمل عوناً لمن يطلع عليه في شحن همته، وتبصيره بمسؤولياته .

٨ – هل أنا متفائل أكثر مما ينبغي ؟ أو أنا متشائم، يرى من خلف نظارة سوداء؟ هل أنا مثالي، يحلم، ويتمنى بحدوث أشياء ليس هناك

مسوغات لحدوثها ؟ أو أن رؤيتي مختلطة مضطربة، يصعب توصيفها وتصنيفها على نحو واضح ؟ هل ملكة النقد لديّ نامية أكثر مما ينبغي، فلا يعجبني - كما يقولون - العجب ولا الصيام في رجب ؟

أسئلة عديدة ألقيها على نفسي عن نفسي، ويلقيها أيضاً آخرون، ويجدون أجوبة، أو لا يجدون، لا أدري . أنا أحاول الإجابة على هذه الأسئلة، وأحصل أحياناً على أجوبة مقنعة، وأحياناً لا أحصل، مع أن على المرء أن يمتلك صورة واضحة عن ذاته، فالوعي الذاتي هو تفكير المرء في تفكيره، و إدراكه لجوهر مقولاته وتوجهاته . إذا كنا سنظل نختلف في تحديد ما هو طبيعي - كما أشرت قبل قليل - وفي التفريق بينه وبين غير الطبيعي - فهذا يعني أننا لن نصل إلى إجابات شافية حول الأسئلة التي نطرحها عن أنفسنا ووجهاتنا الفكرية والثقافية، وهذا من جملة النقص المستولي على عموم البشر . لكن إذا كنا غير قادرين على وضع السكين على المفصل، فلا أقل من أن نقترب منه، والا اقتربنا من (اللا أدريين) و (السفسطائيين) . سأحاول هنا القيام بنوع من المقاربة لإضاءة الأسئلة السابقة ووضع بعض العلامات على طريق تحسس أجوبتها :

أ - قد تعودنا أن نبحث عن الأجوبة القاطعة والحاسمة، وإذا لم نعثر عليها أصابنا شيء من خيبة الأمل، وهذا يعود إلى واقعنا التعليمي القائم على التلقين والحرفية والتكرار، كما أنه يعود إلى صياغة مورثنا العلمي في عصور الانحطاط، حيث الخوف من الاختلاف والبحث عن الاتفاق - ولو كان موهوماً - بأي ثمن ! إن التقدم العقلي والمعرفي ليس في حاجة إلى الأجوبة على التساؤلات الذكية فحسب، لكنه في حاجة

إلى طرح تساؤلات مبتكرة، تساعد على إضاءة الزوايا المظلمة والجوانب المهملة، لذلك أرجو ألا نجزع من الأسئلة التي لا أجوبة عليها، لأن التقدم الحضاري سيظل مديناً لها باستمراره، وحين يعلن العالم أنه وصل إلى كل الأجوبة التي يبحث عنها، فهذا يعني أن كل شيء قد انتهى . لكن هذا لن يكون، حيث سيظل في كل ظاهرة عنصر غيبي - على الأقل - استأثر الخلاق العلام بعلمه . العالم الفذ والمفكر النبيه هو الذي يثير الأسئلة البارعة، كما يقدم الأجوبة المسكتة .

ب - ليس هناك شخص يمكن أن يوصف بأنه مفكر، ليس له رؤية نقدية لبعض مايرى ويسمع ويتوقع، النقد يعني الكشف عن مساحات الصواب والجمال والخير في الأشياء، كما يعني الكشف عن مساحات الخطأ والقبح والشر في جوانب الحياة المختلفة، أي أن النقد هو تقييم للوضعية الحضارية، ومحاولة لتعريف الناس بالإيجابيات والسلبيات التي تكتنف حياتهم . إن المثقف الذي ليس له همّ إلا تحذير الناس من الهلاك الوشيك الذي سيحيق بهم، والمثقف الذي ينشر البشائر بالنصر القريب الباهر . إن هذا المثقف لا يستحق لقب (مفكر) ولا يقف موقفاً موضوعياً، وهو في الغالب من أصحاب العقول المستريحة التي لم يجهدها أصحابها في فهم أي شيء ! لكن من المهم مع هذا أن نقول : إن بعض المفكرين يكون سوداوي المزاج، ولهذا يبدو منزعجاً ويائساً في كل الأحوال، كما أن الأسس والزوايا التي تحكم نظرة المفكر، تتحكم في نوعية الأحكام التي يصدرها، وقبل هذا وذاك قد يعاني المفكر من قصور أدواته، فتبدو للمتأمل أحكامه ومحاكماته بأنها غير عادلة . من أفق

كل هذا أقول : إن تشاؤم المثقف تجاه بعض الأشياء، وتفاؤله تجاه أشياء أخرى، هو شيء صحيح وصحي، ما دامت كل أمم الأرض تشعر أن لديها بعض الإيجابيات، كما أنها تعاني من بعض السلبيات .

ج - ألمح في عيون بعض من يستمع إليّ نوعاً من التساؤل : لماذا لا يضع فلان النقاط على الحروف في أسباب تخلف المسلمين، وفي توضيح دروب الخلاص منه ؟ ولماذا لا يضع يده على الإمكانات والتحديات الماثلة بشكل صريح ؟ إنه يقول كلاماً جميلاً، لكن لا يقول لنا : أين تكمن الزبدة فيه ؟ هذا الكلام يقوله كثيرون من الناس كلما سمعوا من يتحدث في أمور كلية بقطع النظر عن شخصه. في بيان هذه المسألة أود أن أوضح بعض الأشياء المهمة : إن الذي يشغل بال كثير من الدعاة والمفكرين والمصلحين هو اكتشاف ما يمكن عمله في سبيل تحسين أحوال الأمة وموقعها العالمي في مختلف المجالات، وهذا يتطلب درجة مقبولة من استيعاب الواقع بكل معطياته وإمكاناته ومشكلاته، كما يتطلب القيام بالكثير من العمل من أجل بيان أوجه القصور في الحياة العامة . إن معرفة الواحد منا بهذه الأمور تظل نسبية ومحدودة، كما أن استجابة الناس لما يمكن أن يقوله المنظرون أيضاً محدودة وأحياناً ضئيلة أومعدومة، ولهذا فإن المفكر الحق لا يستطيع أن يبني قصوراً شاهقة على أساسات واهية، ولا يرضى لنفسه أن يصوغ العبارات الجازمة والمحددة، وهو غير متأكد من صلابة المعطيات التي في حوزته . إن الأمانة تتطلب منا أن نلتزم الدقة المتناهية في التعبير عن رؤانا من غير مجاملة لأحد . ليس لديّ دواء ناجع يتناوله المريض مرتين في اليوم مدة خمسة أيام، فيعافى ويستعيد

نشاطه، ولكن لدينا طريق طويل، نحاول إزالة بعض الحجارة منه، ودلالة الناس على بعض ما يحتاجه من زاد وراحلة واستعداد، ونحن في كل هذا نردّد قول الله -تعالى - ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾(الجاثية: ٣٢)" كما كان يفعل الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - حين يفتي في بعض المسائل .

د - هل أنا مثالي، أطالب بإيجاد أمور عسيرة، والتخلي عن أشياء يرهق الناس التخلي عنها ؟

في الجواب على هذا التساؤل أقول : لنعرّف المثالية والواقعية أولاً فإذا استطعنا تعريفهما أمكننا أن نتحدث بعد ذلك عن النسبة إليهما . من الواضح أن إدراكنا للواقع غير كامل، ولا دقيق، ومن ثم فإننا حين نقول : إن فلاناً واقعي، فإن هذا القول قابل للفهم المتعدد، وقابل أيضاً للنقاش . هذا شيء، ومن وجه آخر فإن الفكر النهضوي يتطلب دائماً من أصحابه ألا يندمج وعيهم في الواقع ،وأن يظل مرفرفاً فوقه، وهذا يعني أن يقوم طرحهم باستمرار على المطالبة بالتغيير، ولذلك فإنهم يظهرون في عيون الناس، وكأنهم يشكلون عبئاً إضافياً عليهم، وهذا ما يدعو إلى اتهامهم بالمثالية . حين نطالب الناس بالالتزام بصلاة الفجر في المسجد مع الجماعة، فإن هذا الطلب يبدو مثالياً ومتقدماً جداً بالنسبة إلى رجل يرتكب الكبائر، ولا يقيم الصلاة أصلاً، لكنه طلب عادي بالنسبة إلى المسلم الذي يصلي كل الأوقات في المسجد إلا الفجر . وأيضاً فإن المفكر حين يطالب بالإصلاح لا ينظر إلى الإمكانات الناجزة، والملموسة، وإنما ينظر إلى ما في إمكان الناس أن يفعلوه، وينظر إلى الطاقات والفرص

والأوضاع المواتية التي تتولد من خلال مكافحة الفساد ووضع الأمور في نصابها . أما الناس العاديون، فلا ينظرون هذه النظرة، ومن ثم فإنهم يشعرون فعلاً بأن بعض الدعاة والمفكرين مثاليون ومغرقون في المثالية ،أو أنهم يبيعون الكلام من غير إحساس بالمسؤولية لكن لابد مع هذا من أن أعترف أنني أسيء أحياناً التقدير، فأطالب فعلاً بعمل أشياء هي فوق طاقتي وفوق طاقة الناس الذين أخاطبهم، ويبدو أن الذين يستطيعون النجاة من هذا اللون من القصور قليلون ؛ والله المستعان .

٩ - تعلمت من البيئة البسيطة التي نشأت فيها، ومن التلاحم الشديد والتآزر الذي كنت ألمسه بين أهل قريتي الصغيرة - أن التقدم إما أن يكون شاملاً، وأن الرخاء إما أن يكون عاماً أو لا يكون، وهذه النظرة تستند إلى تعاليم ديننا الحنيف التي تؤكد على قيم الرحمة والعدل والتعاون ونصرة المظلوم والوقوف إلى جانب الضعيف .

إن الظلم الذي تمت ممارسته على مدار قرون في أنحاء مختلفة من عالمنا الإسلامي حوّل كثيراً من مجتمعاتنا إلى طبقتين : طبقة الذين يملكون، ويتسلطون، ويستخدمون غيرهم وطبقة الباحثين عن لقمة العيش وعن ركن قوي من أهل السطوة، يحميهم من الإصابة بما هو أسوأ . لا شك أن الله ابتلى بعض عباده بوفرة الإمكانات وعظمة القدرات، كما ابتلى بعضاً آخر منهم بضعف البنية والسذاجة وصعوبة الظروف التي نشأوا فيها، لكن يظل على المجتمع الإسلامي أن يعمل على محورين أساسيين :

الأول : إشاعة العدل وتحقيق مبدأ (تكافؤ الفرص) على أفضل وجه ممكن .

الثاني : إقامة الأطر والمؤسسات والبرامج والمشروعات الخيرية من أجل سد حاجات المعوزين وذوي الظروف القاسية، ومساندة الباطلين عن العمل والأرامل والأيتام . وأنا أنظر إلى العمل الخيري من زاويتين أو على أساسين:

الأساس الأول هو : أن دور العمل الخيري هو دور تكميلي، فإذا فسدت النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وانحط مستوى الشخصية الفردية، فإن ما يمكن أن يقدمه العمل الخيري للمجتمع سيبدو ضئيلاً وغير مُرضٍ.

الأساس الثاني هو : أن العمل الخيري إذا نظرنا إليه نظرة عميقة، فإنه على المستوى الأدبي والأخلاقي - وليس المستوى الفقهي - ليس عبارة عن تبرع من الأغنياء للفقراء، وإنما هو عبارة عن استدراك على قصور النظم التي ابتدعها الإنسان في تدبير شؤونه، وذلك أننا مهما حاولنا إقامة العدل ومكافأة المحسن، وتشجيع المبدع والأخذ على يد الفاسد والمفسد، فإننا سنشعر أننا لم نبلغ ما نريد، وأنه كان في إمكاننا أن نفعل أفضل مما فعلناه، وهنا يأتي العمل الخيري ليكون بمثابة الجبر لما كسرناه بأيدينا من خلال ضعفنا وأخطائنا وخطايانا . إن مجرد الموعظة في إقامة العدل والحث على عمل الخير، لن يكون كافياً في نصرة المظلوم والضعيف، بل لابد من تغيير كثير من القوانين والنظم واللوائح من أجل

موازرة من يحتاج إلى الموازرة، والتقريب بين الطبقات، وضمان الحد الأدنى من العيش الكريم لكل من يعيش داخل المجتمع الإسلامي . وإلى جانب هذا فلا بد أن نفكر طويلاً في كيفية توفير الضمانات الكافية لتطبيق النظم والقوانين المختلفة بحذافيرها على جميع الناس، ودون أي استثناء . وإلى الآن فإن النجاحات التي سجلتها الأمة على هذه الصعيدين مازالت محدودة . الآن علينا أن نتساءل بصدق وأمانة عن أسباب عدم وجود درجة مقبولة من احترام القانون داخل معظم المجتمعات الإسلامية، وأن نتساءل عن انخفاض مستوى الشفافية والنزاهة في كثير من الدوائر والمؤسسات ؟!.

من المهم دائماً أن يشعر المظلوم أن هناك فرصة لرفع الظلم عنه، وأن يشعر الضعيف والمحتاج أن هناك جهة تستطيع أن تساعده – ولو جزئياً – في حل مشكلته . علينا أن نعترف أننا أقوام نكثر من التغني بحب الخير وعمل الخير، ولكن الواقع يشهد، أننا في المؤسسات الخيرية على مستوى الكم والكيف ما زلنا في ذيل الأمم !

وبعد : فهل هذا كل ما يشكل رؤيتي العامة ؟ بالطبع لا، لكنه يعرض لأمور، هي من أهم ما أؤمن به، وفي المقاربات المختلفة القادمة سنعرض ملامح أخرى مهمة لتلك الرؤية، بحول الله .

في

القراءة والتزود المعرفي

العمل من أجل القراءة

لابد للقراءة والتثقيف والاطلاع من أن تكون أشياء مهمة جداً في حياة الأمم، وإلا فما الذي يرمز إليه كون أول ما ينزل على نبينا النبي الأمي - صلى الله عليه وسلم - هو الأمر بالقراءة والإشارة إلى القلم بوصفه أداة تعليم ؟ تنبيه الوعي المسلم منذ البداية إلى أهمية القراءة والكتابة، يعني أن افتتاح وجود هذه الأمة وافتتاح العمل في بناء حضارة الإسلام سيكون بتغيير عقول الناس، وإعادة تكوين ثقافتهم التي كانت تقوم على التخمين، والظن والوهم، والمعلومات غير الموثقة ليكون الدليل والبرهان، وتمحيص الأخبار، والبحث في الأسانيد وأحوال الرواة .. أحد أهم ملامحها . لا أريد هنا التحدث عن أهمية القراءة وعن الوضع السيئ الذي تعاني منه الأمة في تعاملها مع الكتاب، وإنما أريد أن أركز على توضيح رؤيتي الشخصية - وشيء من وجهتي - في مسألة اكتساب المعرفة،لعل القارئ الكريم يجد في ذلك ما يساعده على تحسين وضعه المعرفي، وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:

١ - كثير من الناس يرون أن جيلنا والجيل الذي قبله .. كان أشد حباً للقراءة وأكرم في بذل الجهد من الجيل الحالي، ويظهرون الكثير من الأسف لذلك، كما أنهم يشكون من أن أبناءهم لا يتجاوبون معهم في الإقبال على التعلم . وربما كانت هذه النظرة غير صحيحة، لأن التعليم

قبل مئة سنة لم يكن إلزامياً، ولا عاماً، فأبناء الأثرياء وأبناء الأسر المميزة، وأبناء المثقفين والعلماء، هم الذين كانوا يقبلون على ما كان متيسراً من العلم، وهم الذين كانوا يسافرون لتلقي العلم خارج أوطانهم، أما معظم الناس فقد كانوا أميين، ويعيشون في أوساط يسيطر عليها اليأس والانبهار بعجائب الغرب . وأما المكتبات المنزلية، فقد كانت محدودة للغاية، وهي شبه محصورة في الأسر التي أشرنا إليها قبل قليل . أقول هذا الكلام لأوضح أن ظروف اكتساب المعرفة اليوم أفضل بكثير مما كان في الماضي، وأن الذين يقرؤون ويطورون ثقافتهم هم أيضاً أكثر و أفضل استعداداً . أنا شخصياً كنت أحب القراءة، وكنت متفوقاً في دراستي، لكن لا أعدّ نفسي قارئاً نهماً، ووعيي بأهمية القراءة المتنوعة، ربما جاء متأخراً بعض الشيء، لكن أمكن فيما بعد بحمد الله وتوفيقه استدراك بعض القصور السابق .

٢ – غرس حب القراءة في نفوس الأطفال هو مسؤولية الأسرة في المقام الأول، هذا شيء متفق عليه، لكن السؤال هو : كيف يناط هذا الأمر بالأسرة ونسبة الأمية الهجائية في بعض مجتمعاتنا تصل إلى ٤٠٪ والذين يقرؤون ويكتبون من المسلمين، وليس لديهم أي اهتمام بالقراءة كثيرون جداً، وأما الذين لا تتصل وظائفهم بالعلم والمعرفة والبحث، فإنهم يشكلون النسبة العظمى في مجتمعاتنا الإسلامية !

علينا أن نتساءل : هل الحث على القراءة وحده يحوّل المعرضين عنها والاستزادة من المعرفة إلى قراء شغوفين ؟ الجواب : لا . فقد أثبتت التجربة التاريخية أن الذين ينتفعون بالموعظة، ويغيرون سلوكاتهم دائماً قليلون،

وأحياناً قليلون جداً . إذن ما العمل ؟ دعونا نتفق في البداية على أمر، هو: أن معظم الأسر المسلمة غير مؤهلة لتوفير بيئة منزلية، تحتفي بالكتاب، وتدفع باتجاه تعشق القراءة والمطالعة . إذا اتفقنا على هذا فسنبحث عن بديل، والبديل في نظري يتمثل في الآتي

أ – الاهتمام بإيجاد تشريعات وقوانين تجعل الدراسة في التمهيدي ابتداء، وفي الروضة من سن أربع سنوات بعد ذلك، إلزامية، وإطلاق عدد كبير من المشروعات والاستثمارات العملاقة والخاصة بتعليم الأطفال وتدريسهم، وذلك من أجل تلافي ما يمكن تلافيه من التأثيرات السلبية على الأطفال من قبل أسرهم غير المتعلمة، وتلك غير المهتمة بتعلم أبنائها . ولنا أن نتعلم من اليهود في فلسطين السليبة درساً في هذا، حيث إنهم وجدوا أن معظم الأسر اليهودية غير مؤهلة لتربية أبنائها تربية عبرية توراتية، فلجأوا إلى رياض الأطفال، وجعلوا سن التعليم الإلزامي، يبدأ من السنة الرابعة، كما أنهم فعلوا شيئاً آخر، هو إنشاء ما سموه (زوايا اللعب) حيث يتم إنشاء الكثير من أماكن الترفيه الصغيرة في الأحياء، وتوضع لها البرامج، ويقوم مشرفون مدربون بتطبيقها، ومراقبة الصغار وتوجيههم، ونقل القيم والمعاني التي ترى الدولة ضرورة نقلها إليهم . وهذا ما يجب أن نفعله في تكوين عادة القراءة لدى الأطفال .

أنا باستمرار في كل طروحاتي الفكرية والإصلاحية أحب أن أؤكد على شيئين أساسيين :

الأول : نشر الثقافة التي تتعلق بالشيء الذي نريد إصلاحه أو تطويره

أو التخلص منه . وأعني بذلك نشر كل الأفكار والمعلومات والفوائد والمضار والميزات والسلبيات التي تتعلق بذلك وإجراء حوارات ونقاشات حولها من أجل إيجاد وعي اجتماعي به .

الثاني : سن القوانين وتوفير البيئات والأساليب و الأدوات التي تساعد على تحقيق ذلك، وجعله واقعاً ملموساً . من غير القيام بهذين الأمرين معاً سيكون ما نرجوه من التطوير والإصلاح بعيد المنال، وإذا تحقق منه شيء، فسيكون أقل بكثير من الممكن، ومما نرجو.

ب – إذا كنا جادين في تعميم عادة القراءة، فإن علينا أن نجعل ثقافة القراءة وحركة الكتاب من الأمور الملموسة للصغار والكبار، وهذا لا يتم إلا إذا قامت كل دولة إسلامية بتشكيل (مجلس وطني للقراءة) لا شك أن كل الدول الإسلامية لديها جهود في هذا الشأن، وهناك مؤسسات تهتم به، لكن الذي نريده شيء آخر لأن المطلوب إطار يجمع بين جهود الدولة وأرباب المال والثراء والمثقفين وكل المهتمين بتثقيف الجيل الجديد . نريد أن نرى في كل حي صغير مكتبة عامة صغيرة مع قاعة صغيرة للمطالعة وإلقاء الدروس والمحاضرات، وهذا يمكن تحقيقه عن طريق مساهمة أهل الثراء والقصور الفسيحة من خلال اقتطاع مساحة محدودة منها . أيضاً نريد من أساتذة الجامعات والمتخصصين أن يؤلفوا كتباً صغيرة وبأسلوب سهل من أجل تبسيط تخصصاتهم وتقريبها من أفهام الناس. ونريد من الدول تخصيص ميزانيات سخية لدعم الكتب الجيدة وإنشاء الجوائز الثقافية وإنشاء القنوات الفضائية التي تهتم بالتربية الثقافية وبتحسين الموقف من الكتاب . سوف ننفق على مشروع القراءة بسخاء إذا آمنا

بعمق أن إعراض أبنائنا عن القراءة يشكل أزمة أخطر من أزمة البطالة وأخطر من وباء المخدرات واتساع نسبة حوادث الطلاق، وذلك لأن الجهل يشكل الأساس لكل ألوان التخلف وكل أنواع المشكلات .

ج - كل ما ذكرته ليس كافياً لتغيير الوضعية الاجتماعية على مستوى المعرفة وعلى مستوى اتخاذ العلم مدخلاً لإصلاح كل الأوضاع، وذلك لأن هناك احتمالاً لأن نقيم مهرجانات القراءة وقاعات المطالعة، ونسهل سبل الحصول على الكتاب بكل وسيلة، ثم لا نحصل إلا على القليل من النتائج، والمكتبات العامة التي أنفقت عليها الدول الملايين شاهد على هذا، حيث إن كثيراً منها لا يرتاده يومياً سوى القليل جداً من القراء والباحثين، وهذا ليس بالأمر المستغرب حين يغيب الحافز على بذل الجهد في اكتساب العلم . لهذا فإني أعتقد أن مشكلة الإعراض عن القراءة هي صدى للوضعية العامة التي يحيا فيها الإنسان المسلم، حيث إن للمهنة والوظيفة العامة التي يقضي فيها الإنسان معظم أوقات نشاطه تأثيراً بالغاً في صياغة تطلعاته وتوجهاته في كافة جوانب حياته، لهذا فإني أقول وأنا مطمئن : إن الارتقاء باحتفاء الناس بالقراءة والمعرفة سيظل مرتبطاً بنوعية الوظائف والأعمال التي يمارسونها، وهذه المقولة تستند إلى فكرتين أساسيتين :

الأولى : أن القراءة تحتاج إلى نوع من صفاء الذهن وراحة البدن، واعتدال المزاج، والذين يقضون جل يومهم في أعمال بدنية ومهنية تحتاج إلى جهد عضلي، يأتون في آخر اليوم إلى بيوتهم وهم في حالة من الإجهاد والإعياء الشديد، وهذا يجعل شهيتهم للقراءة شبه معدومة، ولكل قاعدة شواذ .

الثانية : أننا حين نغيرّ اتجاه الاستثمار ونحوّله من أن يكون في السياحة والبناء وكل المهن التي تحتاج إلى جهد عضلي كبير، إلى أن يكون في تشييد الجامعات والمكتبات ومراكز البحوث والصناعات الدقيقة والخدمات العلمية والمؤسسات الخدمية المتطورة .. فإننا نكون قد حفزنا الناس على أن يتعلموا جيداً، ويؤهلوا أنفسهم تأهيلاً حسناً، حتى يعملوا في هذه المجالات، ونكون أيضاً قد جعلنا حياتهم المهنية على صلة بالعلم والمعرفة والبحث، وهذا ما فعلته الأمم المتقدمة، حيث إنها تنفق أموالاً ضخمة في كل المجالات التي تحتاج إلى وظائف تعتمد على الجهد الذهني إلى درجة أن ٤٠٪ من الوظائف في بعض الدول، تعتمد على استخدام المعارف والتقنيات المتقدمة . في هذه الحال لا يحتاج الناس إلى من يحرضهم على القراءة، بل لا معنى لتحريضهم، وهذا ما تفعله البيئة الملائمة في كل الأصعدة .

٣ - في كثير من الأحيان نتخذ قرارات متعجلة على الرغم من اعتقادنا خطأ ذلك، وأنا مازالت أستعجل في اتخاذ القرار حين أريد أن أشتري كتاباً . في أحيان كثيرة أدقق فعلاً في الكتاب، وغالباً ما أعرض عن شرائه، لكن في أحيان أخرى لا أمنح نفسي الوقت الكافي وأنظر في بعض الصفحات من الكتاب على عجل، وأظن أنني اكتشفت مدى ما يمكن أن يقدمه لي، لكن يتبين لي عند القراءة أن الأمر ليس كذلك، وأشعر بالندم على أمرين : المال الذي أنفقته في ثمنه والوقت الذي قطعته في قراءته، وبعد ذلك يأتي الضيق من استضافة ضيف ثقيل في مكتبة تئن من الإقامة الطويلة لكتب مرغوب فيها، وأخرى استُنفدت فوائدها،

أو فقدت صلاحيتها . مشكلة اختيار كتاب، مشكلة يعاني منها كثيرمن الناس، والسبب في ذلك، يعود إلى أن حاجاتنا المعرفية لا تكون واضحة في بعض الأحيان، وأحياناً لا نعرف لماذا نريد اقتناء الكتاب الفلاني، أو لماذا نقرؤه . ولعلي أسلط الضوء على بعض الأمور المساعدة على اختيار الكتاب الملائم :

– معظم الناس يشترون الكتب التي يشعرون أنها مسلية لهم، وقد دلت بعض الدراسات أن ٧٠٪ من القراء في الغرب يقرؤون الكتب بقصد التسلية . بعض الناس يقرأ من أجل الاطلاع والحصول على بعض المعلومات، وبعضهم يقرأ من أجل تحسين المحاكمة العقلية لديه، وبعضهم يقرأ من أجل استخدام ما يقرؤه في الإضافة إلى المعرفة وإعادة إنتاجها من جديد، وكل أشكال القراءة نافعة على درجات متفاوتة . المهم أن نعرف قبل شراء الكتاب ما الذي نريده منه، وأن نعرف فعلاً أنه الكتاب الذي يحقق المراد والغرض المنشود . بعض المكتبات الكبرى، فيها مقاعد مريحة مخصصة لأولئك الذين يريدون تفحص الكتب قبل شرائها، لنستخدم تلك المقاعد، ولنحاول اكتشاف الكتاب من خلال :

– الاطلاع على مقدمته، حيث إن كثيراً من الكتّاب يتحدثون عن كتبهم في مقدماتها .

– قراءة فهارس الكتاب : فهرس الموضوعات وفهرس المراجع والمصادر وفهرس الأفكار والمقولات (إن وجد) وذلك من أجل اكتشاف موضوعات الكتاب واكتشاف موارد الكتاب والاطلاع على

أسماء المؤلفين الذين نقل عنهم الكاتب .

– قراءة بعض صفحات من الكتاب من أجل معرفة مستوى الكتاب وكيفية معالجة المؤلف للمسائل المطروحة ومستوى تلك المعالجة .

– معرفة المؤلف وخلفياته وانتماءاته إن كان له انتماءات معينة ،مع التأكيد على أن بعض المؤلفين الجيدين قد يؤلفون كتباً غير جيدة، كما أن بعض الكتب الجيدة، قام بتأليفها كتّاب مغمورون .

– يمكن للمرء أن يستشير بعض المتخصصين حول بعض ما يريد اقتناءه، مع أنني لا أفضل هذه الطريقة، وأحب لطالب العلم أن يكتشف بنفسه مدى مناسبة الكتاب لحاجاته المعرفية

– حاول دائماً أن تقرأ للأشخاص الموثوقين في دينهم وأمانتهم، وحاول أن تقرأ للمبدعين وأصحاب الخبرة الرفيعة في تخصصاتهم، وأصحاب التعبيرات البليغة والملاحظات الذكية .

– استفد من معارض الكتاب الدولية والمحلية الكبرى في اقتناء ما تريد اقتناءه من المصادر والمراجع . وأنا من جهتي أعد نفسي مديناً بدين لا أستطيع وفاءه لعدد كبير من الكتاب والمفكرين الكبار الذين قبست من إشراقاتهم وملاحظاتهم القيمة، وهؤلاء الكتاب منهم من هو مؤسس لفكر الصحوة الإسلامية المعاصرة، ومنهم من هو متخصص في أحد العلوم الإنسانية، ومنهم من يقع على مسافة ما من الفكر الإسلامي، ومنهم كتاب ومفكرون غير عرب وغير مسلمين .

إن إيماني بأن بين الأمم مشتركا ثقافياً كبيراً جداً، جعلني أنفتح في

القراءة على كتّاب من كل الأجناس، وعلى كتب من كل التخصصات، وأظن أنني في هذا كنت أعمل عملاً يشبه عمل النحلة التي تحط على ما لا يحصى من أنواع الأشجار والأزهار والورود والنباتات - الحلوة والمرة- وتطير حتى تتمكن من ذلك مسافات بعيدة، ثم تضيف على ما تحصل عليه شيئاً مما لديها لتجعل من هذا وذاك شراباً طيباً، فيه غذاء و شفاء للناس . عوّدت نفسي أن أقرأ في العديد من العلوم، ودربت نفسي على اصطياد الأفكار والمفاهيم من غير مظانها ومناجمها، وكنت أجد نفسي أحياناً كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش، ولذا فقد يظفر بشيء وقد يعود بخفيّ حنين، ولكن الظفر كان يعني الظفر بشيء نفيس. وأذكر في هذا السياق نموذجاً لما أعنيه : حين عقدت العزم على تأليف كتاب يتناول شؤون الدعوة والدعاة والمنهج الدعوي (١)، أخذت في ارتياد المكتبات لأقتني الكتب التي تتحدث في هذا الموضوع، وقد اشتريت فعلاً عدداً لا بأس به من المصادر والمراجع المتخصصة، وكنت وأنا أحاول استكمال تلك المصادر والمراجع أقول في نفسي : إذا اقتصرت في تناول هذا الموضوع على الرجوع إلى الكتب المتخصصة، فأنا في النهاية لن أخرج للناس سوى كتاب قريب جداً من الكتب المطبوعة والمتوفرة، وحينئذ فإن فائدة الناس منه ستكون محدودة، ومن هنا فإن عليّ أن أُبعد النجعة، وأطير مسافات بعيدة، وقد قرأت فعلاً في كتب في التاريخ والفكر والآداب الإسلامية والإعلام والتربية والاجتماع والاقتصاد..

(١) خرج الكتاب فيما بعد تحت عنوان "مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي" ضمن سلسلة "المسلمون بين التحدي والمواجهة"

وحصلت على فوائد وأفكار عظيمة، وكان من أشد الكتب نفعاً لي كتاب " عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة " لـ (جان ماري بلت) المنشور ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت، فعلى الرغم من أن الكتاب يتحدث عن الاهتمام بالبيئة الطبيعية وضرورة مكافحة التصحر والتلوث، إلا أنني وجدت كثيراً من الأفكار الرائعة التي نحتاج إليها في بناء المنهج الدعوي وفي توضيح الرؤية الإصلاحية . التحدي الذي يواجهه الواحد منا في حالة توسيع دائرة الكتب التي يقرؤها من أجل الكتابة في موضوع من الموضوعات – هو إيجاد إطار فني وعلمي يجمع تلك الأشتات من المعلومات والملاحظات والفوائد والمفاهيم والأفكار وحبكها على نحو يجعلها في صلب الموضوع الذي تجري معالجته . هذا التحدي أنجح في مواجهته حيناً، وأخفق حيناً آخر، وجمهور القراء هو الحكم.

٤ – هناك أمر يحار في معالجته كثير من الناس، وهو كيفية توزيع ما لديهم من وقت وجهد على العلوم والمعارف التي يحتاجون إليها في تحسين سويتهم الثقافية والفكرية، ولا أريد الإطالة في شرح هذه المسألة، لكن أود أن أبدي بعض الملاحظات السريعة :

أ – المسلم في حاجة إلى معرفة شرعية جيدة من أجل القيام بحقوق الله _ تعالى _ وأداء الواجبات الشخصية والعيش وفق مرادات الله – تعالى – ولهذا فلا بد من تخصيص جزء من الوقت والجهد لدراسة العقيدة والفقه والحديث والتفسير بالإضافة إلى دراسة الآداب والأخلاق الإسلامية ودراسة شيء عن الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي . القراءة في هذه المجالات ضرورية لبناء الشخصية الإسلامية، ولا ينبغي لأي مسلم مهما

كانت اهتماماته المعرفية التقصير في ذلك . وأقترح تخصيص نحو ٢٠٪ من القراءة والدرس لهذه المعارف والعلوم . إن الذين حرموا من هذا اللون من المعرفة، حرموا من خير عظيم، وإنك لتجد أن كثيراً منهم لا يملك درجة حسنة من الحساسية تجاه الحرام والمنكر، بسبب ضعف الفقه في الدين، كما أنك تجد أن رؤيتهم لما لدى الآخر من ثقافة وسلوك غير واضحة، لأنهم فقدوا المعيار الذي يساعدهم على ذلك ، وأنا مدين في كل ما كتبت وكل ما اقتبسته من كتابات الغربيين وغيرهم – مدين إلى ما تزودت به من معين الثقافة الإسلامية، حيث إنه ملّكني البصيرة التي أفرق بها بين ما أسمح لنفسي باقتباسه، وبين ما عليّ أن أتركه لأهله .

ب – إلى جانب العلوم الشرعية، يحتاج المثقف المسلم إلى ثقافة عامة، يستعين بها على تكوين خلفية جيدة عن شؤون الحياة المختلفة، إن لنا في هذه الحياة حاجات مختلفة، ولنا أيضاً علاقات متنوعة ، ونعيش في ظروف ونتفاعل مع معطيات كثيرة، ولابد من شيء من المعرفة التي تتصل بكل ذلك . الثقافة العامة واسعة النطاق، متعددة الجوانب والنواحي، ومن الصعب حصرها وتحديدها، ولهذا فإن من الممكن القول: إن المقصود بالثقافة العامة هو تلك التشكيلة الواسعة من المعارف المغايرة للثقافة الشرعية والثقافة المتخصصة التي سنشير إليها . ويدخل في تلك التشكيلة المعارف والمعلومات والمفاهيم التي تتصل بالتاريخ والجغرافيا والاجتماع والاقتصاد والسياسة وصحة البدن وتدبير شؤون العيش، وطرق التواصل مع الناس، وكل ما يتصل بالعلاقة بالأمم الأخرى، وما لديهم من إيجابيات وسلبيات .. وأقترح أن نخصص لها نحواً من ٣٠٪

. من جهدنا ووقتنا الذي نقضيه في التثقيف والتزود المعرفي . وهذه النسبة كالتي قبلها نسبة تقريبية ،وليست قطعية أو نهائية . وطالب العلم والمفكر وأيضاً الإنسان العادي، كل هؤلاء محتاجون من أجل استقامة حياتهم إلى هذه الثقافة، وقد وجدت من خلال خبرتي الشخصية أن الاطلاع الواسع على المعارف المختلفة يعد ضرورياً من أجل ولادة الأفكار العظيمة والكبيرة، وذلك لأن الأفكار الكبيرة تنحدر في الغالب من رؤية عامة، وهي لا تتوفر عند الإنسان إلا من خلال تفاعل خبراته مع ألوان معرفية مختلفة ومتعددة . وأشعر أن بعض مؤلفاتي مدين على نحو كبير لذلك الاطلاع على آفاق معرفية متباعدة . حين أطلع على كتب بعض المؤلفين الذين كتبوا كتبهم من خلال الحفر المعرفي في تخصصاتهم الضيقة ،أشعر بالاختناق وضآلة التجديد وغلبة الاجترار!.

ج - لا بد إلى جانب الثقافة الشرعية والثقافة العامة من ثقافة متخصصة، يبذل المرء في تحصيلها الكثير من وقته وجهده، الثقافة المتخصصة يكونها الإنسان عادة نتيجة انخراطه في دراسة منهجية في جامعة من الجامعات أو معهد من المعاهد، وهذا ما جرت به العادة . وبعض الناس يكوّن ثقافته المتخصصة بالأسلوب نفسه الذي يكوّن به ثقافته العامة وثقافته الشرعية، وهو الاطّلاع الحر والمستمر . ونحن اليوم في حاجة شديدة إلى التخصص المعرفي، حيث إن زماننا هو زمان الأشياء المتفوقة والمتقنة، ولا سبيل إلى التفوق - في الغالب - إلا بالتركيز، وحصر الاهتمام في مساحات معرفية ضيقة ومحددة، وهذا لا يكون إلا عن طريق التخصص . إن النفوس تكره التركيز لأنه شاق، ولأنه يبدو أحياناً، وكأنه

عديم الفائدة، كما لو أن الواحد منا تخصص في أنواع اللباس التي كانت سائدة أيام الأيوبيين - مثلاً - إنه لا يشعر أن الناس في حاجة إلى هذه المعرفة، ومن ثمَّ فإنه لا يكاد يستفيد من هذا التخصص شيئاً معنوياً أو مادياً، ولذا فإنه يندفع إلى القراءة والكتابة في دوائر أوسع . والذي أود قوله : هو أن العلوم لا تتقدم إلا من خلال البحث في جزئياتها الصغيرة، ثم إن أي تخصص لا يؤتى ثماره اليانعة إلا إذا تفوق فيه صاحبه تفوقاً ظاهراً جداً، إلى درجة أن يصبح حجة أو مرجعاً فيه . هناك الكثير من الباحثين الذين نالوا من وراء التركيز الشديد في لون من ألوان المعرفة - التقدير الاجتماعي والدخل المادي الجيد مع أن تخصصاتهم ليست مهمة أو شعبية . وإني في هذا المقام أدعو إخواني طلاب العلم إلى أن يختار الواحد منهم شعبةً من شعب العلم، ويعمل على تحسين معرفته بها، ثم الصيرورة إلى تدريسها والتأليف فيها ونقد أقوال السابقين، وترجيح ما يظهر له رجحانه، ثم العمل على بلورة أمثلة تطبيقية لها وتيسير سبل الاطلاع عليها من قبل أكبر شريحة ممكنة من الناس . وإذا شعر المرء أنه ليس هناك أي مجال لمزيد من التعمق والعطاء العلمي في ذلك التخصص، فإنه سيكون في إمكانه الانتقال إلى تخصص آخر أو باب آخر من أبواب العلم . وأرى أن نجعل للثقافة المتخصصة ما يتبقى بعد الاهتمام بالثقافة الشرعية والثقافة العامة وهو ٥٠٪ . حاول أخي القارئ أن تتثقف وفق هذا التقسيم، وستجد الكثير الكثير من النفع والخير .

د - كثيراً ما أُسأل عن تنظيم الوقت من أجل الاستفادة منه للقراءة، وكثيراً ما أسمع عن بعض البرامج التي يضعها بعض الشباب من أجل

الاستفادة من أوقاتهم، وهي عديدة، ولا شك أن مجرد البداية في وضع خطة للتعامل مع الوقت يعد في حد ذاته إنجازاً ليس بالقليل، ولا شك أيضاً أنه ليس هناك برنامج للقراءة ،يناسب كل الناس، ولهذا فإني سأنقل تجربتي في هذا الشأن، ومهما كانت جيدة في نظري، فقد لا تلائم غيري. أنا قبل كل شيء رجل اجتماعي، أحب لقاء الناس والتحدث إليهم، وأحب مجالس أهل العلم وكل أولئك المهتمين بشأن الأمة، وأعد اللقاء بالأصدقاء القدامى، شيئاً فريداً في نكهته وصداه، وهذا يأخذ جزءا لا بأس به من وقتي حتى إنني أذكر أن أحد الإخوة الكرام قال لي كلاماً، معناه : إنك تحضر في كل مناسبة، وأراك في كل محفل، فمتى تقرأ، وتكتب على هذا النحو الغزير ؟! .

الجواب يكمن أولاً في الشعور بالشكر العميق لله - جل ثناؤه - على ما وفق وأعان وهدى، ويكمن ثانياً في أنني قطعت عهداً على نفسي منذ نحو خمسة عشر عاماً بأن أقرأ كل يوم ساعات محددة (ليست بالكثيرة)، وقد التزمت بذلك التزاماً صارماً مدة طويلة، وكنت لا أخل بذلك الالتزام إلا إذا كنت في حالة سفر أو مرض، أما في غيرهما، فقد كنت إذا فاتني شيء مما التزمت به أعوض عنه في اليوم التالي أو الذي بعده. إن هذا الالتزام على هذا النحو جعلني غير مستعجل في القراءة، لأنني لم ألتزم بقراءة صفحات كل يوم، وإنما بقضاء وقت في القراءة . كما أن هذا الالتزام حفزني على التفكير المتواصل في تهيئة كتب جديدة للقراءة وتهيئة مشروعات جديدة للكتابة . إن الاستمرار بتنفيذ ما التزمنا

به مدة طويلة، يجعلنا نحصل - بمعونة الله - على نتائج مذهلة، كثيراً ما تكون أعظم مما نتوقع، وهذا يذكرنا بقوله - صلى الله عليه وسلم - : " و كان أحب العمل إليه ما داوم عليه صاحبه " وما وصف به - صلى الله عليه وسلم - من أن عمله كان ديمة، أي مستمراً ودائماً .

هـ - يتصل بي كثير من الشباب الذين يشكون من أنهم لا يملكون الإرادة للاستمرار في قراءة الكتاب إلى آخره ،حيث إن بعضهم يقرأ أول الكتاب بحماسة وجدية وتدقيق، ويقوم بنقل بعض الفوائد إلى أوراقه الخاصة، ولكن حين يصل إلى نصف الكتاب، يفقد الحماسة، ويستعجل في القراءة، ويصبح ما ينقله إلى أوراقه أقل . وبعض الشباب يقرأ شيئاً من الكتاب، ويعرض عن إكماله وهكذا . فما الوضعية الصحيحة في هذا الشأن ؟ وهل علينا أن نقرأ كل كتاب نشتريه، أم ماذا ؟

ليس لديّ جواب قاطع في هذا، وربما كان الأمر يتوقف على طبيعة الكتاب، وعلى سبيل المثال فإن على الذي شرع في قراءة (رواية) أن ينهيها لأنه لا تكتمل الفائدة المرجوة منها إلا بعد قراءة كل فصولها . أما إذا اشترى القارئ كتاباً لأن فيه فصلاً يتصل بموضوع يهتم به، فإن له ألا يقرأ باقي الكتاب، لأنه لا يشعر بالحاجة إلى ذلك . ومن البدهي أن الناس لا يشترون الموسوعات والمعاجم والمراجع الضخمة من أجل قراءتها حرفياً، وإنما من أجل الرجوع إليها عند الحاجة . المهم ألا يترك المرء القراءة لأنه أصابه الملل، أو لأنه عثر على كتاب آخر، يجد رغبة قوية في قراءته . إن من الواضح أن القراءة ليست بالشيء الممتع دائماً، والنفوس

تميل إلى السهولة وإلى الفوضى، لكن إذا عرفنا أن الاستزادة من العلم، هي الطريق الذي لا يصح الحيدة عنه أو التوقف فيه، وأن المعرفة المتجددة مهمة جداً لاستمرار تقدمنا العقلي - إذا عرفنا هذا، فإننا سنبذل الجهد عن طيب خاطر، وسنتعلم مجاهدة النفس وتحمل المشاق

و - كثيراً ما ألتقي بأشخاص أكرمهم الله - تعالى - بقدرة هائلة على التذكر والحفظ وسرد المعلومات والتفاصيل الدقيقة، وأشعر نحوهم فعلاً بالغبطة، فالمعلومات الوفيرة المستقرة في الرأس تشكل المادة الخام التي يحتاجها المرء في صياغة رؤاه وطروحاته، لكن الذي يصدمني بعد ذلك هو عدم استفادة هؤلاء الناس من النصوص والآراء والأقوال والأفكار الكثيرة التي يحفظونها، حيث إنك تجد المحاكمة العقلية لديهم أقل من متوسطة، وحين يأتي دور تبادل الآراء وتمحيص القضايا وبلورة الرؤى الكبرى، نلاحظ أن العلم الذي لديهم لم يمنحهم أي تميز على أولئك الذين لا يحفظون إلا القليل ! وأنا لا أريد تشريح هذه الظاهرة هنا، لكن أود أن أشير إلى أن كثيرين لا يستفيدون مما يحفظونه لأنهم حين حفظوه لم يخطر في بالهم لماذا يحفظونه، وماذا يعملون به .وهذا الكلام مني قد يبدو غير مفهوم لكثير من هؤلاء، حيث إن الحفظ في نظرهم فضيلة في حد ذاته ! وأنا مع إيماني بأن الحفظ فضيلة، لكن من المهم أن لا ننشغل بترداد ما نحفظ وتكراره عن تدبره والتفكير في كيفية الاستفادة منه لإصلاح شؤون ديننا ودنيانا، وهذا واضح، حيث إن الله - تباركت أسماؤه تكفل لنا بحفظ كتابه حين قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

لحافظون﴾(الحجر:٩) وأمرنا بتدبره ووعيه والوقوف على مراميه ومقاصده، حيث يقول : ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(النساء:٨٢) وقال :﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾(ص:٢٩) .

أنا لا أعرف على وجه التحديد كيف يمكن للمرء أن يستفيد من محفوظاته في تحسين سوية رؤيته الحضارية والإصلاحية، لكن أظن أن من المفيد الحديث عن أمرين :

الأول: هو أن الواحد منا يقرأ النصوص التي يحفظها والتي لا يحفظها بعيون مستعارة من ثقافته، فإذا كانت ثرية ومتنوعة وعميقة وجد فيما يحفظ مادة للتأمل والنظر والاستنتاج والتأكد من صحة التوجه المعرفي، لكن إذا كانت قراءاته محدودة أو فقيرة ،و كانت مفاهيمه عن القضايا المختلفة سطحية، فإن المتوقع أن لا يستفيد شيئاً مما يحفظه .

الثاني : يمكن للمرء أن يحاول ممارسة عملية التفكير أثناء الحفظ والتكرار، وذلك من أجل اختزان المعلومات في الذاكرة على نحو مثمر، وهذا يكون من خلال الحذر من تكديس المعلومات في الدماغ على نحو عشوائي كما يحدث الآن لدى معظم طلاب العلم، والصيرورة إلى اختزانها على شكل بنى ونماذج إرشادية وعلى شكل حقائق أساسية وتوجهات وعلاقات ومبادئ رئيسية .

هذه الآية تتحدث عن خضوع الناس لأهوائهم، وهذه الآية تحث

على التثبت قبل إصدار الأحكام، وهذا القول يدل على عدم استيعاب قائله للمسألة، وهذه الفكرة تميل إلى الغلو . وهذا يعني أن نتأمل دائماً فيما نحفظه وذلك من أجل توظيفه في تحسن الفهم لدينا . إن الذاكرة القوية ميزة، لكنها ليست أبرز ما في الأشخاص العظماء . وآمل أن نعرف كيف نستدرك ما فاتنا على هذا الصعيد وعلى غيره .

في

الدعوة والبلاغ

- بدايات
- حول المنهج الدعوي .
- ملاحظات متفرقة .

الرياض
١٤١٠

بدايات

الحس الدعوي موجود لدى كل مسلم، حيث إن الإيمان بالله - تعالى - وبمبادئ الإسلام يولّد لدى المؤمن الإحساس بالمسؤولية تجاه هداية الآخرين، كما يؤسس لمشاعر استحسان الخير والاغتباط به ومشاعر النفور من الشر، لكن البيئات الجاهلة والمحطمة، لا تسمح لتلك المشاعر بالظهور والتجسد في مواقف واضحة . حين نجحت إلى الصف الرابع الابتدائي، تركت التعليم العام، وانتقلت إلى المعهد العلمي الشرعي بحمص، وكان ذلك إيذاناً ببداية جديدة، حيث التضلع من العلوم الشرعية والعربية، وحيث الحرص والغيرة على نقاء الإسلام، واستقامة المسلمين. في حمص تعرفت على بعض الشباب المهتمين بالدعوة وذلك حين كنت في الخامسة عشرة من عمري، وكانوا يذهبون إلى القرى والأرياف لتعريف الناس بواجباتهم الشرعية، وكانوا يهتمون بالقرى التي فيها مساجد، ولكن لا تقام فيها الجمعة بسبب عدم وجود خطيب يخطب في الناس، وقد كانوا يخرجون صباح الجمعة، ويفتحون المسجد، ويقومون بتنظيفه، وبعد ذلك يقومون بتنفيذ ما اتفقوا عليه من قبل : فلان يلقي درساً بسيطاً على المصلين قبل الصلاة، وفلان يؤذن، وفلان يخطب الجمعة، وفلان يحدث الناس بعد الصلاة وهكذا .

وفي إحدى المرات تم تكليفي بإلقاء خطبة الجمعة وأذكر أنني كنت وقتها في السادسة عشر من عمري، وقد كان ذلك اليوم عصيباً ورهيباً، وقد كتبت الخطبة حرفياً على ورقة، وقرأت تلك الورقة مرات كثيرة حتى كدت أحفظها ،وحين صعدت المنبر، وشرعت في القراءة شعرت بخوف شديد، وكانت الورقة التي بيدي أشبه بورقة شجرة هبت عليها ريح عاصف، لكن انتهت الخطبة على خير على الرغم من تداخل السطور أمام عيني وذلك بسبب استحضار معاني ما أقرأ من كثرة التكرار .وبعد ذلك قطعت عهداً على نفسي أن لا أمسك بيدي أي ورقة أثناء الخطابة حتى لا يحدث معي نحو ما حدث في ذلك اليوم، وقد كان ذلك. حين رحلت إلى دمشق والتحقت بمعهد الفتح الإسلامي بدأت في حياتي الدعوية مرحلة جديدة، فقد عُيّنت إماماً وخطيباً في إحدى قراها [1]، ومكثت فيها ما يزيد على سبع سنوات، وهناك شعرت فعلاً أنني أمارس الدعوة، وأتحمل مسؤولية توجيه العديد من الشباب . وكنت قبل أن أترك حمص قد تعرفت على بعض الجماعات الإسلامية وبعض المجموعات المهتمة بالدعوة، واستفدت منها جميعاً، ومازلت أشعر لكثير من أبناء تلك الجماعات والمجموعات بالامتنان، وإن كان قد أصبح لي فيما بعد طريق مستقل لا يبتعد كثيرا عن أيٍ منها ولا أرغب الآن في الخوض في ذكر ما استفدته من تلك الجماعات، ولا في الأسباب التي دعتني إلى أن أسلك المسلك الذي أنا عليه اليوم، لكن اعترف أن

(١) هي قرية (البهامة) وقد كان ذلك في عام ١٣٨٨، وقد لقيت في أهلها من الدماثة وحسن الخلق وكرم النفس ما هوّن عليّ الكثير من مشاق الغربة جزاهم الله خير الجزاء .

الرؤية لدي لم تكن واضحة لا بالنسبة إلى الواقع الذي كانت تعيش فيه البلاد، ولا بالنسبة إلى المناهج الدعوية السائدة، ولا بالنسبة إلى البدائل التي يمكن أن نصير إليها . وكنت كشأن كثير من الشباب أتحمس لبعض الأفكار والأساليب الدعوية ، وأظن أنها ستحدث تغييرات واسعة في الأوضاع العامة، ثم لا يمر وقت طويل حتى أصاب بخيبة الأمل، إذ يتبين لي أن الأمور أكثر تعقيداً مما كنت أظن .في الساحة الدعوية كثير من أهل الغيرة والصدق والإخلاص، ولكن هناك تعصب وتحزب ونوع من ضعف الوعي بالمشكلات المعقدة التي على الدعاة مواجهتها، كما أن هناك نوعاً من التقليد والجمود، وكنت أشعر شعوراً عميقاً بالكثير من النقائص والأزمات، ولكن لم يكن لدي رؤية واضحة للتغيير والتطوير، فالعلوم الشرعية التي اطلعت عليها لا تسعف في هذا الشأن، والدعاة الذين اتصلت بهم وقتها كانوا ما بين معجب بما هو عليه وما بين حائر في أمره، وقليلون جداً أولئك الذين كانوا على بصيرة بما كان يجب القيام به .وليس هذا بمستغرب فليس الدعاة وحدهم حائرين في تحديد أنسب الأساليب والمناهج الإصلاحية، فالعالم كله مرتبك حيال إصلاح الواقع والنهوض به . وسبب هذا الارتباك يعود إلى أمرين أساسيين:

١ – ضعف الوعي لدى الدعاة والمصلحين بأمكاناتهم الذاتية وبالتحديات المحيطة وبتحركات القوى المنافسة والمعادية .

٢ – قلة المعلومات التي تساعد عل تسديد المسيرة الدعوية والإصلاحية، فنحن لا نعرف إلا القليل عن حجم الانحراف الذي يعاني منه أي مجتمع إسلامي، كما أننا لا نعرف الميزات والقوى الكامنة التي

لدى الأمة، بالإضافة إلى عدم وجود بنوك للمعلومات أو نماذج إرشادية أو بحوث علمية جيدة ،تمكّن الدعاة من فهم ما يجب عليهم القيام به والنهوض له . أنا لا أرسم صورة قاتمة لواقع العمل الدعوي، ولا أسعى إلى ذلك، ولكن أريد استنهاض الهمم لإحداث قفزات نوعية في الحركة الدعوية والتربوية والإصلاحية عامة، والله المستعان في كل حال .

حول المنهج الدعوي

يمكن القول : إن النهج الدعوي يتكون من أشكال ومضامين ،تجمع بينها رؤية عامة يمتلكها الداعية أو الجماعة الدعوية . إن ما يقوله الداعية للناس، وطبيعة الرسالة التي يود إيصالها إليهم ورؤيته للمشكلات التي تعترض سبيلهم ولأشكال المساعدة التي في إمكانه تقديمها إليهم، إن هذه الأمور تشكّل جانب المحتوى أو المضمون أو القناعات من المنهج الدعوي . أما أسلوب التواصل مع الناس وأسلوب مخاطبتهم وما يعد الداعية إيصاله إليهم ذا أولوية،ونظرة الداعية إلى كيفية خدمة الناس .

فإنها تشكل الجانب الإجرائي من المنهج الدعوي، ومن هنا فإن من الممكن تعريف المنهج الدعوي بأنه" مجموعة المفاهيم والقواعد والقناعات التي يحملها الداعية ومجموعة الإجراءات والأساليب والآليات والأدوات التي يستخدمها في هداية الخلق والنهوض بأوضاعهم المختلفة "

وعلى هذا فإن الذي يفرّق بين داعية وداعية وجماعة دعوية وجماعة دعوية أخرى لا يعود إلى القناعات والاجتهادات والرؤى فحسب ، وإنما أيضاً إلى الأساليب والآليات والأدوات المستخدمة في التواصل مع الناس. وحين يوجّه نقدُ ما لداعية أو لمنهج دعوي، فقد يكون ما ننتقده هو ما

يراه الداعية، وقد يكون كيفية مخاطبة الناس به . ولعلي أشرح وجهتي وتجربتي في شأن المناهج الدعوية عبر المفردات الآتية :

١ - تعدد المناهج الدعوية :

منذ الصغر، وأنا أسمع الكثير من التذمر والكثير من الشكوى من تفرق الجماعات الإسلامية واختلاف الدعاة، كما كنت أسمع من يستغرب ويستهجن تفرق الدعاة مع أن كلاً منهم يدعو إلى الخير، والدين واحد، والآمال واحدة .

ومع كل شكوى هناك دعوة إلى وحدة العمل الإسلامي و إلى التعاون ورص الصفوف، ومر ما يقارب الأربعين سنة بل يزيد، والشكوى مستمرة، والوحدة لم تتحقق ! وليس هناك من هو مستعد لمناقشة هذه القضية بهدوء بعيداً عن العواطف .

وهذه بعض الملاحظات في هذه القضية المهمة :

أ - لا أحد يقول : إن الاختلاف والتنازع أفضل من الاتفاق والتواؤم، ولكن الناس عند الممارسة العلمية، يختلفون، ويتنازعون من غير قصد منهم، بل لا يجدون في كثير من الأحيان مفراً من تعدد وجهات النظر، وهو بلا ريب جزء من الاختلاف، وهذا قديم قدم البشرية، ولدى كل الأمم دون استثناء، فلماذا يكون الدعاة المعاصرون هم الاستثناء ؟!

ب - حين يستمر أمر من الأمور دهوراً فهذا يعني أن هناك أسباباً موضوعية قوية لاستمراره، وأن هناك سنناً ربانية ماضية قضت بدوامه.

د. عبد الكريم بكار

إدراك هذه الحقيقة مهم جداً لأن تعلقنا بوحدة المناهج الدعوية واتحاد قيادات العمل الدعوي، وصرف كل تفكيرنا وهمنا إليه يضيع عينا فرصة الاهتمام بما هو أقل من الوحدة، وهو التعاون والتشاور والتنسيق وتقريب وجهات النظر، والإعذار والحوار.

ومن المألوف في مواقف كثيرة تضييع الممكن في طلب المستحيل.

ج - يدل العديد من الآيات القرآنية على أن الاختلاف آية من آيات الله، وهو قد يكون مصدراً للثراء والجمال والتكامل إذا تم وفق شروط معينة، وفي هذا يقول الله - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾(الروم: ٢٢).

وقال سبحانه في النحل: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل: ٦٩) وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾(فاطر: ٢٧ - ٢٨). وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود: ١١٨-١١٩).

أي: لو أراد الله لجعل الناس كلهم جماعة واحدة، وعلى قلب واحد ولكن لم يرد هذا. وربما كان ذلك من أجل قيام سنة التدافع والابتلاء والمجاهدة والتنوع الذي هو مظهر غنى وثراء. أما الذين رحمهم الله بالإيمان واتباع الرسل - عليهم السلام - فإنهم لا يختلفون، فهم على دين الإسلام وتوحيد الله الخالص. وهذا يدل على أن الذين يختلفون

في الفروع والجزئيات والوسائل والطرق ليسوا خارجين من رحمة الله، ولا بعيدين عنها . وقد قال الحسن وعطاء وغيرهما في قوله: (ولذلك خلقهم) : أي للاختلاف .

د - الدعوة إلى الله - تعالى - علم وفن، فيها المبادئ والمفاهيم والآراء والمعارف، وفيها الممارسة والسلوك والأدوات والآليات، ونحن إذا نظرنا حولنا وجدنا أن كل أصحاب العلوم النظرية والتطبيقية، يختلفون في الكثير من الأمور، ويتفقون أيضاً على الكثير من الأمور، فلماذا يسوغ للأطباء والمهندسين والحقوقيين والمؤرخين والفقهاء والمحدثين والاقتصاديين أن يختلفوا إلى حد تسفيه بعضهم لبعض في كثير من الأحيان، ولا يسوغ للدعاة والمهتمين بالإصلاح أن يختلفوا وتتباين وجهاتهم حيال بعض المسائل والمستجدات ؟!

هـ - هناك حقيقة ثابتة، هي: أن البشر جميعاً على اختلاف مللهم ونحلهم، وفي كل مراحل تاريخهم، كلما نظروا في الأصول والكليات وجدوا أنفسهم متفقين، وكلما صاروا إلى الفروع والجزئيات، وما هو من قبيل الإجراءات والأساليب، وجدوا أنفسهم في خلاف ونزاع، وهذا ملموس في شؤون الأنبياء - عليهم السلام - حيث إن دينهم واحد وشرائعهم مختلفة، وهكذا الدعاة الملتزمون بنهج الإسلام العام والعاملون في إطار تعاليمه، يتفقون في الأصول، ويختلفون في فهم الأوضاع الراهنة، وفي ترتيب الأولويات، كما يختلفون في استخدام الأدوات وبلورة مناهج العمل، واختلافهم دليل على أنهم يشغّلون عقولهم،

ويحاولون الإبداع والتجديد، وللمصيب منهم أجران وللمخطئ أجر واحد .

و - لا أبالغ إذا قلت : إن من أكثر ما يؤدي إلى تعدد الفهم وتفجر الاختلاف وتباين المناهج - عدم قدرتنا على تحديد المصطلحات التي نستخدمها في تنظيرنا للعمل الدعوي وفي محاولة فهمنا للواقع، ومحاولة تبليغ دين الله -تعالى- للعالمين . وأود أن أقول : إن هذه المشكلة عالمية، إذ يبدو أن العقل البشري يعاني من قصور بنيوي في التعامل مع الأشياء غير المحسوسة، و مع كل ما هو من قبيل المعنويات، ومنها التعريفات والمصطلحات . هذا داعية يقول : إن جماعتنا تؤمن بأهمية الانفتاح على الغرب والاقتباس من أفكاره، لأننا نشعر بالحاجة لما لديه .

يأتي داعية من جماعة أخرى، فيقول : كلنا مع الانفتاح، لكن ما تفعلونه من تدريس كتب الغربيين وتقريرها على طلابكم تجاوز مسألة الانفتاح، وصار أشبه بالتبعية للغرب بل أشبه بالولاء له، ثم إن ما تقتبسونه عن الغربيين موجود في تراثنا، لكنكم لا تريدون تكليف أنفسكم عناء البحث . داعية ثان يقول : إن دعوة الجماعة الفلانية للوجيه الفلاني لحضور احتفالاتها يشكل نوعاً من المداهنة، كما يشكل نوعاً من تشجيعه على التمادي في الباطل، ومنحه درجة من المشروعية والتأييد، لا يستحقها . وترد الجماعة المتهمة بأن ما تفعله ليس مداهنة ولا ممالأة على الباطل، وإنما هو (مداراة) والمداراة مشروعة، ونحن نكرّم فلاناً حتى نكف أذاه عنا، ثم إن لنا مطمعاً في صلاح حاله . داعية يرى أن البلاغ المبين يتحقق بأن تعلن في مجلة أو فضائية مبادئك وقناعتك، وأن تحاول

شرح الإسلام في خطب الجمعة والمحاضرات العامة . يرد عليه داعية آخر بقوله : إن هذا لا يوصف بأنه بلاغ مبين لأن من الناس من لا يأتي إلى المساجد ليسمع منك، ومنهم من لا يملك الوسائل الإعلامية التي تتحدث فيها، كما أن منهم من هو مشغول بالسماع من وسائل إعلامية أخرى، ولهذا فإن البلاغ المبين لا يتم إلا من خلال الاتصال الفردي والحوار المباشر مع الذين ترغب في هدايتهم، كما كان يفعل النبي – صلى الله عليه وسلم – في مكة، حيث كان يعرض دعوته على القبائل قبيلة قبيلة . وهكذا عشرات المصطلحات التي تفهم بطرق مختلفة، وتفسر تفسيرات متباينة . وهذا كاف للحفز على بناء مناهج دعوية مختلفة .

ز – يختلف جميع الناس ومن كل الاختصاصات اختلافاً واسعاً في فهم الواقع، وهذا الاختلاف يؤدي إلى اختلاف التعامل معه . والاختلاف أيضاً في ترتيب الأولويات الدعوية والإصلاحية . نحن حين نريد تحديد واقع معين، نستخدم ما لدينا من مبادئ ومفاهيم، كما نستخدم المعطيات والمعلومات المتوفرة عن ذلك الواقع، وبسبب أن رؤيتنا للواقع دائماً ناقصة، والمعلومات المتوفرة عنه دائماً أقل من المطلوب، فإن مناهجنا الدعوية في التعامل معه ستظل متباينة إلى حد ما . هذا داعية يرى أن واقع المجتمع في منتهى السوء، وهو يتقهقر باستمرار، مما يجعل لغة الإنذار والتهديد تتغلب على خطابه، وهو مع ذلك يضفي عليه مسحة تشاؤمية . في الوقت نفسه هناك دعاة يحققون بعض النجاحات، ويرون من الناس استجابات جيده لدعواتهم، ولهذا فإنهم يتكلمون كلام (المرتاح) المتفائل، ويتوقعون المزيد من التحسن . هناك من جهة

أخرى دعاة يعتقدون أن أسوأ ما يعاني منه الناس هو جهلهم بأمور دينهم، ولهذا فإنهم يأخذون على عاتقهم بناء المدارس الشرعية، وإنشاء الحلقات العلمية.

على حين أن دعاة آخرين يرون أن المشكلة روحية أخلاقية، ويرى آخرون أن المشكلة تربوية.

وهكذا يقوم كل فريق بالتركيز على الأنشطة الملائمة لما يعتقدون أنه يشكل خطراً أكبر، أو يشكّل إصلاحه مدخلاً إلى إصلاح غيره، وهذا كله يجعل مناهج العمل متفاوتة، كما يجعل كل فريق يقوم ببلورة موقف نقدي تجاه باقي الفرقاء.

ح - أحياناً تختلف المناهج الدعوية بسبب اختلاف إمكانات الدعاة وقدراتهم أو بسبب ظروف النشأة والعمل على إكمال مسيرة الآباء والشيوخ، وهذا طبيعي، فالذي نشأ في بيئة علمية، ينفعل بها، ويعتقد أنه مؤهل لأن ينشط في تعليم الناس أمور دينهم، والذي ينشأ في بيت يهتم بالمسائل الروحية والأخلاقية، يمضي في نفس الطريق. ولا بد من القول: إن وعينا بإمكاناتنا وبما يصلح لنا، ونصلح له، يظل دائماً ناقصاً، ولهذا فإن اختيارنا لمنهج معين يكون أيضاً غير أكيد بسبب أنه بني على معطيات ناقصة، لكن مع هذا فإن الناس يتحمسون لما ألفوه من مناهج وأساليب كما لو كان الخيار الوحيد، وكما لو أنه قطعي لا شبهة فيه، وهذا يسبب الكثير من النزاع.

ط - نحن متفقون على أن الاختلاف واقع لا محالة، وليس هناك أي

وسيلة لمنعه، ونحن متفقون أيضاً على أن هناك أموراً لا يصح لأهل القبلة أن يختلفوا فيها، أي أن هناك خلافاً مذموماً، وخلافاً سائغاً أو ممدوحاً، لأنه يعبر عن الاجتهاد، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : ما الحدود التي تفصل بين الخلاف السائغ والخلاف الممقوت ؟ وهذا في الحقيقة يشكل معضلة أمام العقول، وذلك أن المسافة التي تفصل بينهما ذات تغيرات متدرجة فهناك الخلاف السائغ ونصف السائغ .

وهناك الخلاف المدمر، والخلاف الشنيع، والخلاف المكروه، والخلاف الذي لا نعرف ما الذي سنقوله فيه . وإذا فرضنا أننا عرَّفنا فعلاً الخلاف غير السائغ، يبقى لدينا ما سماه الأصوليون بـ (تحقيق المناط)أي هل هذا التعريف ينطبق فعلاً على الخلاف القائم بين هذه الجماعة وتلك أولا ؟ .

قد أستطيع القول : إن الخلاف يكون سائغاً إذا توفر فيه شرطان :

١ –إذا كان داخل الأصول والكليات الإسلامية والشرعية، أي كان خلافاً ناتجاً عن اجتهاد مؤصل، كما هو شأن معظم الخلافات الواقعة بين الدعاة من أهل السنة والجماعة .

٢ –ألا يؤدي الاختلاف في الفروع إلى الفرقة والتدابر والغيبة، وأنا أستوحي هذا الشرط من قول الله – تعالى – :﴿ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(آل عمران ١٠٥).

ومن المؤسف أن كثيراً من الخلاف في الفروع اليوم يفرق بين رفاق الدرب الواحد، ويشتت القلوب والمواقف !.

ي - لا أستطيع بعد كل هذا أن أنفي دور الأخطاء المنهجية والحساسيات النفسية ودور سوء الفهم في حدوث الاختلاف وتعدد المسالك والمناهج والمواقف، فنحن مخلوقات عاطفية في المُقام الأول، وكم شاهدت من التحسسات النفسية والخلافات الشخصية التي ألبست ثوب الفكر، لتصل في نهاية المطاف إلى مناهج الدعوة والحركة ؟!. وهناك جماعات بنت حركتها في المجتمع على شيء من السرية، فأثارت حولها الريب والشكوك لدى الجماعات الأخرى . وهناك من الدعاة من يأنف من التبعية للداعي الفلاني، وهما في بلد واحد، فيؤسس عملاً جديداً بسبب ذلك وليس بسبب الاختلاف على المنهج .

قد يقول قائل : قد أطلت النفس في علاج هذه المسألة، وكأنك ترى أنها تشكل قضية مهمة جداً في الشأن الدعوي ؟

أقول : نعم هي كذلك، حيث إن المكاسب تكون كثيرة جداً إذا استطعنا توضيح مسألة (الخلاف) على نحو جيد، لعلنا إذا أقررنا مشروعيته تركنا إشغال الذهن بمسألة الوحدة والاندماج، واتجهنا إلى الممكن من التحاور والتشاور والتعاذر والتعاون وإقامة المشروعات المشتركة .

إذا أردت توضيح وجهتي الشخصية في مسألة تعدد المناهج الدعوية أمكنني أن أقول الآتي :

١ - ربما أعطيت انطباعاً أن الخلاف بين الدعاة هو شيء طبيعي ومشروع وهينٌ، وأنني لا أبالي به، وهذا صحيح نسبياً، لكن أود أن أقول

هنا شيئاً إضافياً، هو أن من سنن الله - تعالى - في الخلق ما نلاحظه من السعي الدائب من كل الكائنات الحية في اتجاه الاستقلال والتفرد، وكأن في ذلك ضمانة من الإضمحلال، أو الاندماج الذي يمحو كل الخصائص .وفي المقابل فإن كثيراً من الكائنات الحية يسعى إلى التعاون والتآزر من أجل مواجهة الأخطار المحدقة، وهذا ما على جميع الساعين في الخير والداعين إلى الله - تعالى - القيام به، فالأمة تحتاج إلى جهد أكبر وتأثير أعظم، وهذا يأتي من وراء الجهد المشترك والمشروعات العملاقة، والتي يعجز عنها أي داعية بمفرده .

٢ - كثير من الفرقة الكائنة فعلاً في الساحة الدعوية اليوم لم ينشأ نتيجة وعي عميق باختلاف المناهج، وذلك لأننا لو جئنا إلى جماعتين دعويتين تعملان في بلد واحد، وطلبنا من كل واحدة ذكر الخصائص الذاتية التي تمنعها من التعاون مع الجماعة الأخرى لما وجدت شيئاً مهماً تتحدث عنه . والحقيقة أن التشابه بين الأنشطة الدعوية . هو الذي يدفع - في بعض الأحيان - في اتجاه التفرد والزهد في التعاون، لأن الداعية، قد لا يجد أي فائدة ترتجى من وراء تعاونه مع داعية آخر من أهل بلده، ولهذا فإنه لا يفكر في هذا الأمر .

٣ - إن إقرار مشروعية الخلاف بين الدعاة إلى الله - تعالى - لا يعني الاعتراف بالأوضاع الدعوية السائدة، فهناك أخطاء شرعية وأخطاء منهجية، وتقصير في الأداء، مما هو ملازم للبشر، ولا يخلو عنه أحد، والواجب هو التناصح والحرص على التخلص من الأخطاء، وتحسين شروط العمل الدعوي، وهذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض،

ومن جملة الأخلاقيات التي ينبغي أن تسود في المجال الدعوي . وأعتقد أن كل واحد من الدعاة سوف يحرص على مناصحة إخوانه إذا عرف أن نجاحهم نجاح له، وأن إخفاقهم يؤثر سلباً عليه .

٤ - قررت منذ ما يقارب ربع قرن أن أكون على مسافة واحدة من كل المناهج الدعوية الموجودة الآن، وما زلت أشعر أن ذلك القرار كان صحيحاً، وذلك ليس لأن منهجي أفضل منها، ولكن لأنني لم أجد نفسي متطابقاً مع أي توجه أو تيار دعوي سائد في منطقتنا، ومع ذلك أعتقد أن الجميع يبذلون جهوداً مشكورة في خدمة الدين والأمة. ومن وجه آخر فإن المفكر حين يؤطر نفسه بإطار من صنع البشر، قد يجد نفسه مشغولاً بالتنظير لذلك الإطار وبيان محاسنه والدفاع عنه، وهذا يحدُّ من عطائه وقبل ذلك من مصداقيته، على حين أنني أجد أن التنظير للمنهج الرباني الأقوم، والانشغال بتوعية الأمة وإرشادها، يقينا في الساحة الآمنة، ويجعلنا منفتحين على جماهير الأمة، ويوفر لنا إمكانات هائلة للتأثير والتواصل، ويبعدنا عن التباسات الحزبية والتعصب والتحيز . وهذا الذي أرتضيته لنفسي لا أدعوا إليه الآخرين، ولا أرى أنه يصلح لجميع الناس . المهم دائماً أن يختار المرء الوضعية الأنقى والأعون على تبليغ الرسالة والأعون على مساعدة الأمة في تجاوز مشكلاتها، ولله الحمد والمنة في كل حال .

٢ - التخصص الدعوي :

نحن في زمان يتحسّن فيه وعي الناس باستمرار، وترتقي فيه ذائقتهم الثقافية، فالفضائيات أتاحت للمسلم العادي أن يرى ويسمع الكثير من الكلام الدقيق والمتقن والجذاب، أضف إلى هذا أن مشكلات الناس اليوم باتت كثيرة ومعقدة للغاية، وهم ينتظرون من علمائهم ودعاتهم ومرشديهم المساعدة في حلها . هذا كله يتطلب شيئاً واحداً هو الارتقاء بالخطاب الدعوي وبالطرح الإسلامي، وإلا تراجعت قوة تأثيرنا في المجتمع . وأعتقد أن علينا في هذا السياق أن نقوم بأمرين جوهريين:

أ - تبني فكرة (التخصص الدعوي) والتي تعني أن التفوق الدعوي وتحسين مستوى الأداء يحتاج إلى (الإتقان) والإتقان يحتاج إلى (التركيز)، وهذا ما يمضي عليه العالم كله وفي جميع الشؤون والمجالات، ولا يليق بنا أن نتخلف عن ذلك . نعني بالتخصص الدعوي وجود مؤسسات ومشروعات وبرامج دعوية تهتم بشرائح اجتماعية محددة، وذلك مثل :

- دعوة النساء.
- دعوة الشباب .
- دعوة الشباب الجامعي .
- دعوة التجار والصناع .
- دعوة العمال .
- دعوة المثقفين

- دعوة الأقليات والجاليات غير المسلمة .
- دعوة المراهقين والأشبال .

إن في إمكان أي مهتم بالدعوة يستطيع أن يبادر إلى العناية بشريحة أو فئة ممن أشرنا إليهم، كما أنه يمكن قيام جماعات وتنظيم برامج دعوية طويلة الأمد تهتم بذلك . إن الاتجاه نحو أي فئة من هذه الفئات، يساعد الدعاة على توفير معلومات جيدة عنها، كما أنه يساعد على كسب الخبرة في فهم مشكلاتها وطرق خطابها، ونوعية ردود أفعالها وأمور كثيرة من هذا القبيل، وهذه الخبرة ضرورية جداً للتفوق والإتقان، ومن خلال معرفتي واطلاعي وجدت أن كثيراً من الدعاة الناجحين، نجحوا بسبب التخصص، وإن كانوا ليسوا بالكثيرين . ولا بد مع التخصص من نشر الأدبيات والمفاهيم والأفكار والخبرات التي حصلنا عليها من وراء التركيز المشار إليه حتى نثري الساحة الدعوية بالنظريات والتطبيقات العملية، وذلك من أجل مساعدة الشباب الجدد المنخرطين في مجال الدعوة المبارك.

ب - البحث العلمي الدعوي هو الآخر يشكل عاملاً مهماً في تحسين الأداء الدعوي في عصرنا الحاضر . إن الداعية أشبه شيء بالطبيب، وعمله قريب جداً من عمل الطبيب، فكما أن كثيراً من التقدم الطبي جاء من خلال التقدم في مجال تشخيص العلل والأدواء بواسطة التحليل والتصوير وأشكال الفحص السريري المتطور، كذلك التقدم الدعوي يمكن أن يأتي الكثير منه من خلال فهم واقع المدعوين والمشكلات التي يعانون منها، وطرق التأثير فيهم، إلى جانب معرفة ملاحظاتهم على

الدعاة والصور الذهنية التي رسموها عنهم، وهذه بعض الأفكار التي تتعلق بهذا الموضوع الحيوي :

١ – من المهم أن تقتنع الجماعات الإسلامية الكبرى ووزارات الأوقاف والدعوة، والمؤسسات الدعوية المختلفة أن جزءاً مهماً من نجاحها وتحقيقها لأهدافها، يتوقف على فهمها الجيد للواقع الذي تتحرك فيه، ولأوضاع المدعوين الذين تعمل على إرشادهم وإصلاحهم، والحقيقة أننا على مدار التاريخ كنا نتصور الواقع بكل تعقيداته ومعطياته عن طريق الخيال والتأمل، وقد ثبت عقم ذلك الأسلوب ،وربما كان الكثير من تعثر الدعوات والكثير من ضعف الإنجاز على صعيد هداية الخلق عائداً إلى ذلك . ويجب أن يعرف الجميع أن علينا أن ننظر إلى ذلك الأسلوب على أنه جزء من الماضي غير المقبول .

٢ – تحتاج كل جماعة ومؤسسة وهيئة .

تهتم بشؤون الدعوة إلى إقامة مركز لبحوث الدعوة، مهما كانت إمكاناته متواضعة، ويمكن أن يبدأ برئيس وموظفين اثنين، ويتعاون معه بعض الشباب بشكل طوعي أو بدوام جزئي، ويجهز ذلك المركز بما يحتاجه من كتب ومراجع، ويؤمن له ما يحتاج إليه من اشتراكات في الجرائد والمجلات والإنترنت .

٣ – يضع المركز خطة بحثية سنوية بالتشاور مع قيادات المؤسسة أو الجماعة أو الهيئة.

وذلك من أجل اكتشاف الواقع، وتقديم النصائح والمعلومات حوله.

٤ - يقوم المركز بالتنسيق المستمر مع أقسام الدراسات العليا في كليات الدعوة والشريعة والكليات الإنسانية المختلفة، وذلك من أجل تكليف طلاب الدراسات العليا ببعض البحوث التي تخدم أهداف المركز.

٥ - يقوم المركز بتسويق نفسه أمام رجال الأعمال من أجل توفير المال المطلوب لتمويل البحوث المزمع القيام بها .

٦ - يحاول المركز إجراء بحوث تهتم بأحوال الشرائح والفئات الاجتماعية التي أشرنا إليها قبل قليل، ومن ذلك :

• درجة التزام الشريحة بالواجبات الشرعية .

• درجة بعدها عن المحرمات، ولا سيما الكبائر .

• مدى ما ينقصها من علم شرعي وفقه بالدين .

• حين يشكل نوع من الانحراف ظاهرة لدى تلك الشريحة يجري العمل على بحث أسبابه وكيفية علاجه .

• المعاناة المعيشية للشريحة وأسبابها .

• طموحات تلك الشريحة وتطلعاتها ومدى شعورها بهموم الأمة.

• نظرة الشريحة للدعوة والدعاة، وما قد يكون لديها من ملاحظات.

• قياس دوري لمدى ما يمكن أن يطرأ على أحوالها من رقي وانحطاط .

• دراسة أوضاع الأشخاص الذين يمكن تهيئتهم لأن يكونوا دعاة في المستقبل .

• دراسة أحوال الذين كانوا دعاة، ثم تركوا العمل الدعوي وأسباب ذلك

٧ – القيام بتوزيع استبانات تكشف عن آراء الناس حول الكثير من الشؤون العامة بغية معرفة مواقفهم وأمزجتهم ونوعية المشكلات التي يعانون منها

٨ – القيام بما يمكن القيام به من الإحصاءات المختلفة، والتعاون مع الجهات العالمية التي تصدر تقارير دورية ذات طابع إحصائي .

وأود أن أؤكد هنا على هذا النشاط لأن مصداقية الأرقام عالية جداً، والناس يستوعبون دلالاتها على نحو أفضل بكثير من استيعابهم للكلام الإنشائي الذي يعتمد على الوصف . وأعتقد أن كثيراً من الوعاظ والدعاة يحتاجون حاجة ماسّة جداً إلى الأرقام التي تترجم واقع الناس، وتشرح العلل الاجتماعية المختلفة، وإن كثيراً من ارتقاء الخطاب الدعوي سيظل متوقفاً على مدى ما يمكن توفيره من أرقام ومعلومات محددة .

٩ – إنتاج البحوث النظرية التي تتناول شؤون المجال الدعوي قاطبة، من نحو : المنهج الدعوي، أخلاق الداعية، ثقافة الداعية ،فكر الداعية، الأسلوب الدعوي، العلاقة بين الدعاة، النقد الذاتي في المجال الدعوي، شروط استجابة المدعوين، التحديات الواقعية التي تواجه الدعوة، كيفية تحسين الأداء الدعوي .

ونحن إلى جانب مراكز البحوث في حاجة إلى إنشاء (بنوك معلومات الدعوة) وكما أن على كل جماعة وهيئة . دعوية أن تنشئ مركزاً لبحوث الدعوة، فإن عليها أن تنشئ (بنكاً) للمعلومات الدعوية ومعلومات هذا البنك يمكن أن تستخلص من البحوث والإحصاءات التي تجريها مراكز البحوث، كما يمكن استقاؤها من مراكز المعلومات المختلفة . ونحن نطمح من الآن أن يبادر بعض الشباب الغيور والطموح إلى تأسيس موقع عملاق على الإنترنت نجمع فيه كل الأفكار والمعلومات والأرقام والخبرات والأساليب التي يمكن أن تعين الدعاة في عملهم، ويمكن تأسيس هيئة عالمية، تتولى إقامة هذا الموقع وتغذيته باستمرار بأخبار الدعوة والدعاة في أنحاء العالم، وتعمل على تطويره بشكل دائم . إننا من خلال إنشاء (بنك) ضخم للمعلومات لا نسد حاجات الدعاة، فحسب، وإنما يمكن أن نساعد على توحيد الخطاب الإسلامي وتوجيه اهتمامات الدعاة نحو القضايا الأساسية التي تمس حياة الأمة بشكل قوي .فأين السباقون ؟ وأين المبادرون ؟ وأين سُداد الثغرات ؟

٣ - جاذبية الدعوة :

نحن في عصر جديد بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فالتطور التقني للاتصال والبث الفضائي جعل العالم كله في مواجهة بعضه لبعض، وأتاح انتشاراً غير مسبوق لقيم الغرب وثقافته وحضارته، ومن الواضح أن العولمة تقوم - على الصعيد الثقافي - بأشياء كثيرة، من أهمها : تهميش السلطات : سلطة المجتمع وسلطة الدولة وسلطة المدرسة والأسرة، كما تقوم بتوسيع دائرة الحرية الشخصية إلى أن صار كثير من الناس ينظرون

إلى أي ملاحظة توجّه إليهم على أنها تدخل غير مقبول في شأنهم الخاص، وهيمنة غير محقة ! ولا بد لنا إزاء هذه الوضعية من التفكير في المنهج والأسلوب الدعوي الملائم . وهذه بعض الملاحظات العجلى في هذا الشأن :

أ - صارت حساسية الناس نحو النصائح المباشرة أشد، ولا سيما تلك التي تنطوي على الأمر والنهي والوعيد والتهديد، مع أن الناس في الحقيقة سيظلون في حاجة إلى هذا، والقرآن الكريم زاخرا بهذا اللون من الخطاب، لكن القرآن كلام رب العالمين، وكلام البشر شيء آخر، ومن هنا فإنه يمكن استخدام صيغ تدل على الإشفاق الناعم، من نحو :

نحن في حاجة إلى كذا، نحن نحسّ بكذا، على المسلم أن يتأمل في كذا، هذا يشكل خطورة علينا، الوضع سيظل صعباً ما لم نفعل كذا وكذا، هذا الفعل من كثير من المسلمين، يثير القلق . وقد جربت هذا الأسلوب في خطابي الدعوي في الفضائيات وفي الكتابة، ووجدت أنه مجدٍ، وأقل إثارة لحساسيات الناس . ولا شك أن نفور الناس من الوعظ المباشر والحاد سيظل متفاوتاً، لكن يمكن القول : إن الناس كلما درجوا في دروب التقدم العمراني والحضاري، صار ما يتوقعونه من بعضهم من اللطف والرقة والأناقة اللفظية أشد وأعظم .

ب - الإنسان المتحضر يزداد وعيه تفتحاً على مصالحه، ويزداد اهتمامه بما يجلب له النفع، ويدفع عنه الضرر، ومن هنا فإن من المستحسن أن نعتمد في خطابنا ذكر ميزات الأعمال الصالحة وسلبيات الأعمال

السيئة، وأن نوضح للناس الخيرات التي تنتظرهم عند المضي في دروب الطاعة والتقوى، إلى جانب توضيح مخاطر المعاصي عليهم في الدنيا والآخرة، وعلينا في كل حال الحذر من المبالغة والإسراف في هذا وذاك، فقد رأيت من الوعاظ والخطباء من يذكر للأمر الواحد عشر ميزات، كما يذكر لبعض الأشياء خمس عشرة سلبية، وهذا ليس من لغته - صلى الله عليه وسلم - ولا من هديه، كما أنه يمكن دائماً دمج كثير من الميزات والسلبيات في بعضها لنصل في النهاية إلى أربع أو خمس سلبيات في الحدّ الأقصى لكل أمر نريد تعليله.

ج - إن الدعاة إلى الله - تعالى - يكملون عمل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في هداية الخلق وتبليغ الرسالة، وهو عمل يقوم على الإقناع وليس على الإكراه، فالله - سبحانه - وهب العقل لعباده، ومن خلاله يفهمون الخطاب، ويقدرون عواقب الإعراض والاستكبار، ولذلك فهم مسئولون عن اختيارهم الشخصي، ومهمة الدعاة التبشير والإنذار والنصح والتعليم، وهذا ما لا يصح أن ننساه، وفي هذا يقول الله - جل ثناؤه - : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾(البقرة: ٢٥٦) أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في الدين. وقد يفهم من الآية الكريمة عدم قابلية الدين

بطبيعته للإكراه، لأن الدين مجموعة من المبادئ والعقائد والقيم العظيمة، فإذا أكرهنا أحداً على الإيمان والعمل بها، فإنه يمتثل ظاهرياً، ويضمر الكفر، وبذلك لا يكون قد دخل في الدين. وقد ذكر بعض المؤرخين أن " النفاق " لم يكن معروفاً في المدينة قبل غزوة بدر، فلما

انتصر المسلمون فيها صار لهم قوة وشوكة، فأضمر أقوام الكفر، وأظهروا الإيمان، فكانوا بذلك أسوأ حالاً من الكفار . وهكذا وعلى مدار التاريخ حين يصبح لأهل الخير في الأمة سلطة قوية وهيمنة على الشارع، يصبح لبعض الناس سلوكان خيرٌ يظهرونه ،وسيئ يضمرونه . ويقول الله - تعالى:﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(يونس:٩٩) .

وقال - جل شانه - : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾(فاطر:٨) .

وقال :﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾(الرعد:٤٠). وقال :﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾(الرعد:٤٠) . إن الهداية من الله - تعالى - وعلى الأنبياء والدعاة من بعدهم القيام بالبلاغ الذي يقطع العذر، ويقيم الحجة . ومن المهم دائماً ألا ننسى المبدأ العظيم الذي يقول : إن القيم لا تُفرض فرضاً، ولكنها تجذب الناس إليها من خلال تجسدها في سلوك المؤمنين بها والعاشقين لها وهذا هو التحدي الذي يواجه الأمة كلها، فنحن إذا أردنا لهذا الدين أن يعم العالم، فإن علينا قبل تعريف الناس به أن نُريهم الآثار العظيمة التي أحدثها الالتزام في حياتنا الأخلاقية والاجتماعية وفي أوضاعنا المعيشية، بهذا وحده يمكن للإسلام أن يصبح دين أغلبية البشر خلال قرن من الزمان . إن فرض المبادئ على الناس وإلزامهم بالقيم التي نؤمن بها عن طريق الضغط والقسر، يجعل وعيهم ينفتح على عيوب الدعاة وعلى أشكال المفارقة بين ما يقولون وبين ما يفعلون، وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى وضع بعض القيم الإسلامية

موضع الجدل، ويعرّضها للاستهلاك الإعلامي، وبهذا نكون عامل فتنة للناس، ونجلب الضرر للمبادئ التي نؤمن بها . وقد علمتني التجربة أن الذين يستشعرون مثل هذه المخاطر، ويملكون الحساسية الكافية لفهم هذا المعنى، هم دائماً قليلون؛ والله المستعان .

د - لا يعني هذا بحال من الأحوال عدم السعي إلى طهارة الشارع المسلم والسعي إلى الحفاظ على الشعائر والمظاهر الإسلامية، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا المبدأ العظيم وسيلة أساسية لنشر الخير ومحاصرة الشر، وتطبيقه منوط بالسواد الأعظم من المسلمين، ونحن إذا أردنا الحفاظ على نقاء المجتمع المسلم، فإن علينا أن نعمل على سن القوانين والتشريعات وإيجاد النظم التي تكفل ذلك، والكلام مهم، ولكن قليل الجدوى إذا ما قورن بالأثر الذي تتركه التشريعات والنظم . ويجب أن ينهض لهذا الأمر فئة من أهل الخير والغيرة والاختصاص، ولا أرى للدعاة الانشغال بذلك عن واجباتهم الأساسية .

هـ - هذا يدعوني في الحقيقة للتحدث على نحو موجز جداً في أمرين أساسيين : الأول منهما يتعلق بالتنظيم في العمل الدعوي، والآخر يتعلق بممارسة العنف من أجل نشر الإسلام أو ترسيخ وجوده :

١ - تنظيم العمل الدعوي :

دقة التنظيم لدى أي أمة من الأمم تعبر عن تقدمها الحضاري، وزيادة كفاءة أجهزتها التنفيذية، ولو أحببت أن أكون صريحاً، فإني سأقول إن معظم المؤسسات المهتمة بالدعوة على المستوى الرسمي والشعبي مصابة

بالترهل والفوضى، وهذا داء قديم جداً، فالتحديث الحقيقي لم يصل إلى تلك المؤسسات إلا بشكل جزئي وسطحي . وأنا هنا لا أعمم، لكن أتحدث عن الأكثرية . ولست هنا بصدد بيان المشكل في هذا الشأن، لكن أود أن أتحدث عن بعض ما شاب العمل الدعوي من خلل على مستوى (البنية) وذلك ظاهر في أمرين :

الأول هو التنظيم الأفقي، حيث تجد الجماعة الواحدة منتشرة في عدد من البلدان داخل القطر الواحد، وتجد قيادة الجماعة الدعوية قد استقرت في العاصمة، أو في مدينة كبرى، وصارت ترسل التعليمات والتوجيهات والمناهج إلى باقي المناطق . ولا شك في أن لذلك بعض الفوائد ،لكن الشئ المؤسف الذي يحدث هو أن فروع الجماعة في المدن المختلفة، تدير ظهرها للقوى والمجموعات الدعوية المحلية، على حين تكون أنظارها معلقة ببلد قيادتها، وحين يكون في المدينة الواحدة عدد من الجماعات، فإنهم يشكلون منظراً أشبه بحلقة من الناس أداروا فيها ظهورهم لبعضها ووجوههم نحو الفضاءات المحيطة !! . أنا أفهم أن العمل الأساسي لأي جماعة إسلامية هو القيام بواجب الدعوة إلى الله - تعالى - في بيئتها، ومحاولة تقديم الخدمة الفكرية والروحية والمادية للناس من حولها، وهذا لا يكون في حال حسنة من غير تعاون كل القوى الخيرة في المدينة أو البلدة، وهذا ما لا يحدث في كثير من الأحيان . يمكن لأي مجموعة دعوية في أي مكان أن يكون لها نوع من المرجعية الفكرية أو الروحية في بلد أخر، ولا مانع من ذلك، وقد يكون مفيداً جداً، لكن لا ينبغي لذلك أن يكون عامل عزلة للجماعة عن محيطها، لأن ذلك يضر بالدعوة، وقد شهدت

في حياتي ما يتجاوز العزلة إلى النزاع والصراع والتصادم بين جماعات إسلامية تدعوا إلى أهداف واحدة، وتجمعها مبادئ واحدة، ومن هنا فإني أدعو إلى توثيق العلاقات بين الدعاة والمصلحين داخل المدينة أو المنطقة الواحدة، وإعطائها الأولوية، فهذا أنفى للشحناء والبغضاء وأدعى إلى تحسين الأداء الدعوي، فهل نجرب ؟

الثاني : هو سرية العمل الدعوي، وكتمان أهدافه وتطلعاته، وإخفاء العلاقات القائمة بين أعضائه إلى جانب - طبعاً - إسدال الستار على قياداته ورمزه . وأنا أود أن أقدم بعض الملاحظات في هذا الشأن

• من حق أي شخص وأي جماعة وأي حزب وأي دولة أن يكون له أشياء يخفيها، ولا يطلع عليها أحداً، وتراثنا مملوء بالنصائح التي تحث الإنسان على كتمان أسراره وتعلم دفن خصوصياته في صدره وإلى الأبد .هذا شيء لا يصح الاختلاف فيه، لكن يمكن أن يقال أيضاً إن أي جماعة تحيط نفسها بجدار منيع من السرية، وتوحي إلى الآخرين بأن لديها الكثير مما لا ينبغي لهم الإطلاع عليه، تثير الشكوك حولها، فقد تعود الناس عبر تاريخنا الطويل أن يخالطوا الدعاة، وأن يمتزجوا بهم روحياً وفكرياً، كما ألفوا منهم الطيبة والبساطة والانفتاح، ولذلك فإن العمل السري يقابل بالاستيحاش وبإثارة التساؤلات .

• كثير من الأفكار ينتشر بسبب الثقة بصاحبه، وذلك لأن معظم الناس يجدون أنفسهم عاجزين عن مناقشة الأفكار والآراء والأحكام التي تُعرض عليهم، والثقة بالمرء تتولد في أحيان كثيرة من وراء معرفته

والاتصال به، ومن خلال المصداقية التي بُنيت عن طريق الاحتكاك به، وحين ينخرط الإنسان في جماعة سرية، فإنه يقلل من احتكاكه بالناس، وأحياناً يضطر إلى أن يقول مالا يعتقد، كما أن جزءاً من شخصيته يظل طي الكتمان . وإذا عرف الناس أن فلاناً ينتمي إلى جماعة محظورة، فقد يبتعدون عنه، ويخشون من الاقتراب منه حتى لا يؤذوا بسببه . وقد رأيت بعض الجماعات والأحزاب الموغلة في السرية، ورأيت كيف أن أفكارها متوارية ودعواتها خامدة بسبب ما أشرنا إليه . أضف إلى هذا أن الأمة تحتاج في نهضتها وتقدمها إلى (نماذج) ترى في شخصيتها وسلوكها ما يمكن أن يقدمه الالتزام بالإسلام من خير وصلاح ورقي لدعاته وحاملي شعلته، وهذا لا يتحقق على النحو المطلوب في المنخرطين في أعمال سرية.

– لم يكن العمل سرياً إلا لأن أصحابه يشعرون بأنه غير قانوني أو غير مصرح به، ومع أن كثيراً من الأعمال الدعوية قام في ظروف غير عادلة، حيث حورب الدعاة من قبل جهات لا تمثل الأمة، ولا تحمل عقيدتها، إلا أن هذا لا يغير من حكم الواقع شيئاً، فالعمل الذي لا يحظى بموافقة السلطات القائمة يظل مصدراً للمشكلات المختلفة، ولهذا فإن على الدعاة أن ينظروا إلى العمل الدعوي السري على أنه أشبه بأكل الميتة، يتناول منه المرء بقدر الضرورة وكلما قلَّل منه كان أحسن . ليس هناك أي مصلحة بأن يقوم عراك داخلي بين الدعاة والحكام، والعمل الأساسي الذي ينتظر الجميع هو نشر الخير والعدل ومحاصرة الشر والفساد، وتحسين الأحوال المعيشية للناس، ونحن لا نستطيع قطع الجدل حول ما ينبغي

عمله، لكن علينا أن نكون دائماً واضحين وعلى درجة عالية من المصداقية والحرص على المصلحة الوطنية العليا .

– في ظل العمل السري يكون كشف الأخطاء صعباً لأن الظروف الأمنية لا تتيح قدراً جيداً من التعارف بين القيادة والقاعدة، كما تكثر الأوهام والوعود الكبرى التي لا تتحقق، ويسود نوع من الخشية من كثرة الأسئلة خوفاً من اطلاع الصغار على أمور هي من اختصاص الكبار. وإذا عدنا إلى التاريخ فإنه سيقول لنا : إن معظم ما حدث من انحراف لدى الفرق والمذاهب الإسلامية، والتي كان أصلها إسلامياً – حدث في أجواء سرية بعيداً عن نظر الجماهير العريضة ،إن الأفكار والمبادئ مثل معظم الأشياء، تصاب بالتعفن والتحلل الذاتي حين نحجب عنها الشمس والهواء . ويحدث إلى جانب هذا شيء آخر، هو انعدام أو ضعف المبادرة الشخصية لدى أفراد الجماعة السرية ،حيث يصبح دور الكبار إصدار التعليمات والتخطيط واتخاذ القرارات، ويكون دور الأتباع التنفيذ، ويسود لدى هؤلاء اعتقاد بأن القيادة تعرف كل شيء، وتفكر في كل شيء، ولا يكون – بالطبع – هذا صحيحاً دائماً . وهذا الذي أقوله ليس من باب التنظير أو التخيل المجرد، فقد عايشت بعضه، وسمعت عن بعضه الآخر، وبعضه ظاهر للعيان في كل مكان .

– لو لم يكن للعمل السري من سلبية سوى أنه يهيئ للتعانف والاقتتال الداخلي لكفى، وذلك أن الجماعة حين تنشط في السر، تحافظ على تماسكها من خلال إضفاء التميز على نفسها ، وهذا التميز يقوم على مديح الذات وإبراز عيوب الآخرين، وهم في هذه الحال الحكومات

ورموز المجتمع مما يجعل الأجواء الداخلية للجماعة مشحونة بالتوتر والخوف والكراهية، ويخرج كثير من الأتباع في هذه الحالة بنتيجة مفادها: نحن المؤتمنون على الإسلام ورسالته و على مصالح الأمة، والدين اليوم محارب ومهمّش، والحكومات والمساندون لها والمتربعون على موائدها، والضامنون لأمنها، كل هؤلاء أعداء حقيقيون، يجب الخلاص منهم بأي طريقة، وما يقوم به المصلحون من نشاط، وما يقوم به الدعاة المعتدلون، عبارة عن ضحك على النفس وخداع للأمة، وتضييع للوقت، ولا بد من أجل إبراء الذمة من إعلان الجهاد ، وهكذا تتشكل داخل الجماعة السرية نواة للانشقاق عن الجماعة التي تنتمي إليها، وذلك لأن قيادة الجماعة لا تريد خوض حرب ضد أحد، ولا تستعد لذلك ولكن طريقة التوجيه والتثقيف الذي مارسته،وطبيعة التنظيم الذي ارتضته لنفسها، يؤدي على نحو منطقي إلى ذلك،ويحدث الانشقاق،ويبدأ العمل المسلح،وتجد الجماعة نفسها في قبضة فئة صغيرة من بنيها، يتحكمون في حركتها وفي أمنها،ويتلاعبون بمستقبلها. إن المؤسف أن كل ذلك كثيراً ما يتم عن حسن قصد ومن غير وعي بالمخاطر الجمة . إن استخدام العنف من أجل الإصلاح أو نشر الإسلام يشكل خطأ استراتيجياً هائلاً،وذلك لأن الذين يقومون به لم يتعلموا من التاريخ أي درس، و لم يأخذوا منه أي عبرة،حيث إن السواد الأعظم من الثورات -إن لم أقل كل الثورات -التي قامت من أجل الإصلاح باءت بالفشل الذريع، وذلك لأسباب موضوعية،لا أريد الآن شرحها،ثم إن حساسية هؤلاء الذين يتخذون العنف أسلوباً للتغيير- نحو حرمة الدماء ضعيفة جداً، ودليل ضعفها هو ذلك العدد الضخم من

الأبرياء الذين يسقطون صرعى دون أي ذنب ارتكبوه، وهؤلاء لا يذكرون التهديد الشديد الذي وجهه البارئ - جل وعلا- إليهم حين قال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾(المائدة: ٣٢) "كما أنهم لا يذكرون قوله - صلى الله عليه وسلم - :" لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً". [١] بعض الشباب ممن اتخذوا العنف منهجاً لم يكتفوا بما فعلوه في بلادهم وداخل أوطانهم من القتل والتدمير وإشاعة الفوضى، وإنما قاموا بأنشطة دولية كبيرة ظانين أنهم قادرون على تأديب العالم الغربي، وقادرون على إعادة التوازن المفقود في العلاقة بيننا وبينه، وقد ظهر بعد مرور سنوات خمس على إحداث (١١ سبتمبر) أنهم لم يهدموا أمريكا، و لم يلقنوا الغربيين درساً لن ينسوه، وإنما هيجوا العالم علينا، وأساؤوا إلى سمعة الإسلام العالمية إساءة بالغة، وأعطوا الذريعة للمتطرفين في الغرب كي يحاربونا من غير هوادة . إن أولئك الشباب يظنون أنهم مخوَّلون شرعاً ونظاماً بأن يصنفوا العالم بأسره كما يحبون : فهذا صديق، وهذا عدو، وهذا ذمي، وهذا محارب، وهذا محايد . إنهم منحوا أنفسهم صلاحيات لم يمنحهم الشرع إياها، ولا يرضى بذلك أي فقيه متبحر في علوم الشريعة.

وربما آن الأوان لأن يصحو هؤلاء من الأوهام التي استسلموا لها!. إن وضعيتنا العامة تحتم علينا سلوكاً معيناً تجاه العالم، وهو سلوك لا يصح

(١) أخرجه أحمد والبخاري .

أبداً أن يقوم على القتل والتخريب ومحاولة إلحاق الأذى مهما ظُلمنا ومهما أسيء إلينا، لأننا أصحاب رسالة نريد إضاءة العالم بها، ولهذا فنحن أصحاب حاجة عند العالم، ووسيلتنا إلى نيلها هي البر والإحسان وحمل قيم الإسلام النبيلة، والصفح والتعاون الدولي على الخير .

نعم إن الغرب يكيل بمكيالين في مسألة فلسطين، وغيرها ولكن ثنيه عن ذلك لا يكون أبداً عن طريق تفجير الأنفاق وخطف الطائرات والاغتيالات، و إنما عن طريق الإعلام الذكي والضغط السياسي ومن خلال تبادل المصالح ، إذ إن الغرب سيغير سلوكه تجاهنا حين يعرف أن ذلك السلوك يؤذي مصالحه لدينا . وعلينا ألا ننسى عشرات الملايين من المسلمين المقيمين في أمريكا وكندا وأوروبا وأستراليا، إن هؤلاء يتعرضون اليوم لإساءة العنصريين هناك، وبعضهم فقد عمله، وبعضهم صار يخاف من أن يقول : إنه مسلم. إن أي تصرف عنيف من قبلنا يؤثر تأثيراً سيئاً عليهم وعلى أبنائهم، ولا يصح لنا تجاهل ذلك ديناً وخلقاً ومروءة ومصلحة .

٤ – **ما بين الداعية والفقيه** : ما الحسّ الذي يشكل موقف الداعية ؟ والحسّ الذي يشكل موقف الفقيه ؟ أجد دائماً صعوبة في الوصول إلى شيء يمكن الاعتماد عليه على نحو حاسم، لكن لا بأس أن أفكر بصوت عال، وأضع بعض النقاط على بعض الحروف، مع أن هناك حروفاً ليس لدى لها أي نقاط :

أ – لا أريد هنا أن أدق إسفيناً بين الفقهاء والدعاة، ولا أستطيع

ذلك، بسبب أن كلاً منهما يؤطر نفسه بإطار الشريعة الغراء، ويحاول دائماً الوقوف عند حدود الله - تعالى - والسعي في مراضيه، لكني أريد بلورة الوعي بمهمات الفقهاء والدعاة، وبالمسارات العامة التي تحكم كلا الفريقين، ولا أعرف إن كنت سأبلغ ما أريد . لدى الفقيه حب لنشر تعاليم الدين الحنيف، ولديه كذلك تدقيق في أن يكون الالتزام بأحكام الشريعة حرفياً وكاملاً، إنه يحمل حس القاضي الحريص على أن يكون كل شيء في محله مستوفياً نصابه . ولدى الداعية كذلك حب لانتشار الالتزام بين المسلمين وارتقاء مستواه، ولهذا فإن التنوع الذي نلمسه عند المقارنة بينهما، هو تنوع في إطار الوحدة . ولا بد أن أشير هنا إلى ما أعتقده من أن الصرح الفقهي العظيم الذي شيّده فقهاء الأمة يعد بحق أعظم إنجاز ثقافي في تاريخنا، ولا أعرف أبداً كيف تستمر أمة الإسلام وكيف تحل مشكلاتها لولا الجهد الضخم الذي بذله الفقهاء بغية تحديد ملامح الاستقامة على أمر الله، وبغية حل المشكلات الكثيرة التي تواجه الإنسان المسلم .

ب - إذا عدنا إلى التاريخ، فإنه سيعطينا درساً واضحاً في طبيعة عمل الداعية وطبيعة عمل الفقيه، حيث إن الجهد الإسلامي الأول في تاريخ هذه الأمة كان يتركز في مكة المكرمة على بناء العقيدة الإسلامية وعلى تكوين الوجدان الإسلامي، ولذلك كان العمل الدعوي يستنفد كل طاقات النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الكرام، وذلك لأن دور الدعوة يتركز في إقامة الفرد المسلم والمجتمع المسلم والأمة المسلمة . أما في المدينة المنورة فإن الجهد الدعوي لم يتوقف، لكن أضيف إليه

جهد بيان الأحكام الفقهية التي أخذت بالتوارد، وجهد تعليم المسلمين أمور دينهم، وجهد حماية المجتمع المسلم من الانحراف والجريمة وحل مشكلاته المختلفة . إذن دور الداعية هو دور المبادرة والتأسيس والبناء ودور الفقيه دور الضبط والتعليم والحماية . ومن الملاحظ اليوم أن كثيراً من الشباب المسلم يتشوقون إلى رؤية حكم الله - تعالى - وقد ساد في الأرض، فتمت أسلمة المناهج الدراسية، والقضاء، وطُبقت الحدود والعقوبات الشرعية، وهذا دليل عظمة ما لديهم من غيرة وولاء لهذا الدين، وبمجرد أن تتولى جماعة إسلامية أو حزب إسلامي مقاليد الأمور في بلد من البلدان يبدأ الشباب بالمطالبة بإصدار القوانين والتشريعات الإسلامية، ويصبح ذلك هو الإنجاز الأعظم الذي تتعلق به الأبصار، أي أن حسّ الفقيه لديهم متقدم على حسّ الداعية . حسّ الفقيه يقوم على التحديد والحسم الملموس، على حين أن حسّ الداعية يقوم على الصبر والتدرج ومراعاة الظروف . وهذا الموقف من أولئك الشباب سببه عدم وضوح الفرق في أذهانهم بين ما يطلب للبناء والتشييد، وما يُطلب للاستمرار والمحافظة على الإنجازات . وأحب أن أؤكد على حقيقة مهمة هي أن الحضارات العظمى والأعمال الكبرى لا تقوم أبداً من خلال التدقيق والتحديد والرقابة المشددة والمتابعة الشاملة، وإنما تقوم من خلال المبادرة والتضحية والعطاء المتدفق والأفكار الذكية . وتأتي بعد ذلك النظم والتشريعات والقوانين والعقوبات من أجل تنقية الكيان القائم من الشوائب، وتنظيم علاقاته وحمايته من الانحراف، وهذا ما وجدناه في تاريخنا الإسلامي، كما أشرت إليه قبل قليل .

ج - الفقيه رجل متخصص، وكل التخصصات هي عبارة عن مساقات تنتظم معارف جزئية بينها نوع من الارتباط الفضفاض، ولذلك فإن نظرة الفقيه تتسم بالتركيز الشديد وهو حين يعلّم، أو يفتي أو يقضي يحب التعامل مع أشياء محددة

(الفتوى على قدر السؤال) ومع أن الفقيه يأخذ بعين الاعتبار حال المتعلم والمستفتي إلا أن هذا يسير جداً بالنسبة إلى عموميات الفقه وأحكامه المطلقة والثابتة . أما الداعية فإنه لا يملك دقة الفقيه، ولا يتعامل مع قضايا جزئية، وإن كان يتحتم عليه أن يعرف من الفقه قدراً يمكنه من النجاح في دعوته . إن الداعية يحتاج إلى رؤية كلية يتحرك من خلالها، وهذه الرؤية تشتمل على الاهتمام بعدد من الأمور منها :

- معرفة جوهر الرسالة التي يريد إيصالها للناس، والأولويات لتلك الرسالة، أي ما الذي يقال الآن، وما الذي يقال بعد مدة .

- فهم نفوس المدعوين ومدى استعدادهم للسماع ودرجة استجابتهم .

- فهم حاجات المدعوين العلمية والروحية والسلوكية، وفهم المشكلات التي يعانون منها، من أجل مساعدتهم في ذلك .

- إدراك مناخ العمل السائد وحدود الحركة المسموح بها، وكيفية توسيع مجال العمل .

- معرفة متطلبات التأثير في الناس على المستوى العلمي وعلى مستوى الأساليب والأدوات .

مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض ١٤٢٠

- معرفة القوى المضادة التي تجهض العمل الدعوي، أو تعوق حركته.

من هنا نلاحظ أن الداعية يحتاج فعلاً إلى رؤية مركبة كي ينجح في عمله، وليس كذلك الفقيه . لا أريد من هذا إعطاء أهمية خاصة لعمل الدعاة، وإنما أريد أن أنبه إلى تعقد المهمة التي تواجههم .

ملاحظات متفرقة

قد أكرمني الله تعالى بممارسة الدعوة منذ نعومة أظفاري - كما أشرت - وأرجو الله - تعالى - ألا يحرمني هذا الشرف العظيم . وأنا لا أريد إغلاق هذا الملف قبل أن أبدي بعض الملاحظات الشخصية المفيدة، إن شاء الله تعالى حول بعض المسائل المهمة .وأنا شخصياً أعلق على العمل الدعوي آمالاً عراضاً، و لم لا، وللدعاة سجل مشرّف في التاريخ المديد لهذه الأمة، وتصور معي كيف يكون شكل الحياة لو لم يكن لدينا من يجهر بالحق، ويدعوا إلى الخير، وينبه على الزلل، ويوقظ الناس من غفلاتهم . لا شك أننا سنشعر أننا فقدنا شيئاً عظيماً وأن حياتنا صارت صخرية جليدية بائسة . من هذا المنطلق منطلق الحب والغيرة والشعور بالأهمية يبدي محبو الدعوة والدعاة ملاحظهم غير عاتبين على أحد، لأنني وأنا أبدي ملاحظاتي أشعر بالتقصير الشديد، وأنني غير قادر على تطبيق بعض ما أقوله هنا، ولكن ذلك لا يمنع من إضاءة الطريق للسائرين فيه . وأسأل الله -تعالى - أن يعفو عن القصور والتقصير .

١ - التدريب التعليمي :

هناك شيء نعاني منه في معظم الحقول التعليمية، وفي كل المراحل، وذلك الشيء هو (التدريب التعليمي) ولا تشكل كليات الدعوة استثناء

في هذا الشأن . لدينا عدد هائل من المدارس والمعاهد الشرعية في المراحل المختلفة، ولدينا عدد لا بأس به من الكليات التي تقدم علوم الدعوة في المراحل العليا، وكلها تعاني - هناك استثناءات لا تكاد تذكر - من ضعف الجانب التطبيقي .بعض الكليات والمدارس فيها تطبيق ضعيف من خلال مادة (الخطابة) لكنه- فيما أعلم- تطبيق محدود و شكلي، وغالباً ما يكون بتحدث الطالب أم زملائه مدة قصيرة. ليس المقصود من تدريب الطلاب هو إكسابهم الخبرة وتحسين مستوى الممارسة لديهم، فحسب، وإنما المقصود أيضاً الكشف عن المواهب والاستعدادات ومحاولة صقلها وتنميتها وتوجيهها . ومن المؤسف في هذا الصدد أن أقول إن نسب التسرب في المعاهد الشرعية الأهلية قد تتجاوز الـ (٨٠٪) في بعض الأحيان، إذ إن من المألوف أن يتم قبول أربعين طالباً في السنة الأولى ثم لا يتخرج في السنة الخامسة سوى ثمانية أو عشرة، والمشكل أن الذين يمارسون الدعوة فعلياً من هؤلاء قد لا يزيد على ثلاثة أو أربعة ! امتحانات القبول الجيدة تكشف جانباً من الصلاحية لدخول التخصص، والتدريب الدعوي يكشف عن نقاط التفوق والضعف لدى الطلاب، وهذا وذاك في معظم الكليات والمعاهد الشرعية والدعوية ضعيفان ! إن النهوض بالتدريب يحتاج إلى الاهتمام بعدد من الأمور منها :

• زيادة حصص التدريب في الخطط الدراسية لتشكل نحو ٢٠٪ من ساعات الدراسة .

• عقد اتفاقيات تدريبية مع بعض مراكز التدريب الجيدة لتقديم دورات مكثفة في الخطابة والحوار والتفاوض والتأثير الجماهيري

والعلاقات العامة والتواصل مع الناس .

• تنظيم برامج دعوية يشرف عليها بعض المتخصصين من أجل إتاحة الفرصة أمام الطلاب لممارسة الدعوة والوعظ في المساجد ومراكز توعية ودعوة الجاليات وفي المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، بالإضافة إلى تنظيم رحلات ومخيمات دعوية في المناطق النائية . وأذكر أن بعض المعاهد الدعوية في ماليزيا كانت ترسل طلابها مدة جيدة من العام الدراسي إلى أطراف الغابات من أجل دعوة البدائيين هناك، وقد كان لذلك أثر إيجابي جيد.

• يمكن تشعيب السنة الرابعة في كليات الدعوة إلى عدد من الشعب، وذلك من أجل التركيز في التعليم والتدريب، وسيكون من الجيد أن يكون هناك شعبة لدعوة المسلمين، وشعبة أخرى لدعوة غير المسلمين حسب ظروف البلد الذي فيه الكلية، كما يمكن عوضاً عن هذ تشعيبها إلى شعبتين شعبة تعد الخريج لمخاطبة الصفوة والمثقفين والتأثير فيهم، و أخرى لمخاطبة العامة والأشخاص العاديين .

٢ - تعميم فضيلة الاهتمام بالدعوة :

ليس في مبادئنا ولا أدبياتنا ما يدل على أن دعوة الناس إلى الخير ونصحهم وتوجيههم . هي من اختصاص أقوام بأعيانهم، بل إن النصوص تدل على ترغيب كل مسلم في ذلك مهما كانت درجة ثقافته، يقول - عليه الصلاة والسلام - مرغباً في الدعوة إلى الله - تعالى - وداعياً بالخير للدعاة وأهل العلم : " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل

أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً"(١).

وقال : " نضّر الله امرأ سمع منا شيئاً، فبلغه كما سمعه فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع " (٢) . وقال حاثاً للناس على القيام بالبلاغ : بلغوا عني ولو آية " (٣) .إن هذه النصوص وأشباهها ترمي إلى إشاعة العلم في الأمة و إشاعة التذكير بالخير، وتحذير الناس من نشر الدعوات الضالة . وهذا لا يتحقق إلا من خلال اشتغال عدد كبير من الناس بالدعوة إلى الله – تعالى – ولا أعني بالاشتغال التفرغ والتخصص، ولكن أعني الحرص والاهتمام والمساهمة في ذلك ولو بشيء يسير . أنا أتصور أن الأصل في الناس هو حب المشاركة في الدعوة، لكن يبدو أن بعض المفاهيم الخاطئة وبعض الاحترازات المبالغ فيها، هو الذي أدى إلى انصراف معظم الناس عن هذا الأمر العظيم والشرف الكبير . بعض الناس، لا يدعون إلى الله – تعالى – لأنهم يظنون أنهم أقل شأناً من أن يتصدوا لهذه المهمة العظيمة، لأن الداعية في اعتقادهم رجل غير عادي في عمله وسلوكه ووعيه . وبعضهم ينظر إلى معاصيه وأخطائه، فيعرض عن الدعوة، لأن الداعية في رأيه شخص بعيد عن الأخطاء . وبعض الناس يخشى إذا دعا الآخرين أن يقول على الله –تعالى–بغير علم، وبعضهم يظن أن الكفاية تحصل بالجهد الذي يبذله الدعاة المتخصصون .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد والترمذي.

(٣) رواه البخاري .

وهذا كله غير صحيح، فقد نال شرف المساهمة في الدعوة أخيار كثيرون من هذه الأمة، مع قلة بضاعتهم العلمية، ومع وقوعهم في بعض المعاصي، المهم دائماً أن يكون المرء عارفاً بما يدعو إليه، وبما يأمر به، وينهى عنه . حث الناس على الذهاب إلى المسجد، وتشجيعهم على صلة أرحامهم، وتحذيرهم من شرب الخمر . كل هذا لا يحتاج إلى ثقافة واسعة، ويمكن للأمي من المسلمين أن يقوم به .

السؤال هو : كيف نحفّز الناس على المشاركة في الدعوة ؟

أ – إذا أردنا لأي شيء أن يكون طافياً على سطح الوعي، وراسخاً في دائرة الاهتمام، فلنجعل منه (قضية)، وقد صار هذا الأمر سهلاً اليوم بسبب تقدم الاتصال وانتشار وسائله على نحو مدهش، وإنما أقول هذا الكلام لأن من الواضح أن كثيراً من الأشياء الأساسية يصبح مهملاً وبعيداً عن الخدمة والعناية بسبب عدم وجود فئة تذكّر الناس به، وتجعله حاضراً في عقولهم . الدعاة هم المؤهلون لتولي هذه المهمة، ويمكن أن يجعلوها جزءاً من نشاطهم الدعوي اليومي .

ب – قد تكون البداية لهذا العمل الكبير في أن يقوم بعض كليات الدعوة أو بعض الجماعات الإسلامية المهتمة بالدعوة بإجراء عدد من البحوث والدراسات وتصميم بعض الاستبانات حول الأخطاء الأكثر انتشاراً في المجتمع وحول الشعائر والآداب والسلوكات التي يكثر تقصير الناس فيها، بالإضافة إلى دراسة الأسباب التي تدفع بكثير من المسلمين إلى الإحجام عن المشاركة في الدعوة إلى الله – سبحانه – بعد

ذلك يقوم باحثون متخصصون باستخراج خلاصات وافية وواضحة من تلك البحوث . من أجل البدء في نشر ثقافة توعوية حولها، ونشر هذه الثقافة يشمل تأليف الكتيبات، وإقامة الدورات، وإرسال رسائل الجوال، وإقامة المعارض، وتنظيم برامج إذاعية وتلفازية، والكتابة في بعض الجرائد بشكل أسبوعي . والمستهدف من هذا النشاط تكوين مجموعات كبيرة تملك قدراً جيداً من المعرفة الدعوية حول المسائل التي أشرنا إليها، وسيكون من مهام هذه المجموعات تثقيف وتدريب مجموعات جديدة ليكون لها نفس الاهتمام، وهكذا وهكذا حتى نشعر بأن الاهتمام بالدعوة قد صار واسع الانتشار بين كل طبقات المجتمع .

ج - هذه الفكرة الجميلة والمهمة تحتاج حتى تتحقق إلى مؤسسات، ترعاها، والحقيقة أني تعلمت من خلال خبرتي المتواضعة بالعمل الدعوي أن الدعاة يملكون الكثير من الأفكار البناءة، لكن تلك الأفكار تضمحل وتُنسى بسبب عدم وجود من يؤسس الأنشطة والبرامج التي تعمل على تنفيذها، ومن هنا فلا بد من وجود مؤسسات دعوية ليس لها من شاغل سوى توسيع قاعدة المهتمين بالدعوة، وتأسيس البرامج وإبداع الأساليب التي تساعد على ذلك، وأرشح لهذه المهمة الجليلة ثلاث جهات أساسية:

- وزارات الأوقاف والدعوة والإرشاد
- الجماعات الإسلامية الكبرى .
- كليات الدعوة والشريعة وأصول الدين .

دعونا نبدع في توفير الأطر التي تساعد الناس على ممارسة الدعوة، ودعونا نبدع في تصميم المهام الدعوية الصغيرة والصغيرة جداً والتي يمكن للمسلم مهما كانت ظروفه القيام بها أو المساهمة فيها، ولا يتسع المقام هنا لذكر نماذج لذلك، لكنني متأكد أن البداية ستكون في الاهتمام من أهل العزيمة والغيرة بهذه القضية، وسنرى الكثير الكثير من الأمور السارة والمدهشة، فهل نبدأ ؟ .

٣ - إدراك الذائقة الثقافية الجديدة :

الناس يتذوقون الكلام، كما يتذوقون الطعام، وكما أن الطعام المستساغ ليس هو الطعام المكوّن من عناصر مفيدة فقط، كذلك الكلام الذي يسمع بشغف، ليس هو الكلام المفيد فحسب، بل لا بد في الحالتين من موافقة ذائقة الناس وقابليتهم، وتلك الذائقة تتصف بالتطور المستمر، فكم من (أكلة) كانت في يوم من الأيام سيدة المائدة، ثم توارت حتى أنكرتها الأجيال اللاحقة، وكم من أسلوب كان يوماً ما يُلهب حماس الجماهير، ثم صار يقابل منهم بالبرودة والتململ .

الداعية الذي يريد الدخول إلى القلوب والسيطرة على الأذهان، يحتاج إلى فهم الأسباب التي تجعل المدعوين يرتاحون لمتحدث دون متحدث، ولأسلوب دون أسلوب آخر . هذه القضية معقدة جداً، وتحتاج إلى شفافية ومتابعة، ولعلي أبدي حولها الملاحظات الآتية :

أ - من الصعب على الداعية أن يصوغ خطاباً يستحوذ فيه على الرضا الكامل لفريق من الناس ،كما أن من الصعب عليه أيضاً أن يصوغ

خطاباً ينال إعجاب كل الناس ، وهذه قضية واضحة ونهائية، ولهذا فإن نجاحنا في التأثير في الناس سيظل نسبياً، كما أن استمراره سيظل غير مضمون . ونحن أيضاً من جهتنا قد لا نستطيع الاتفاق على ملامح الأسلوب الأنجح في خطاب الناس، وهذه القضية كذلك محسومة، أي ما سأقوله اجتهادي وظني .

ب – كثير من إخواننا الدعاة طوروا فعلاً أسلوب خطابهم، وجددوا في الموضوعات التي يطرحونها تماشياً مع الأوضاع والحاجات الجديدة للناس، وهم يُشكرون على ذلك لأن أسلوب الرجل هو الرجل نفسه، ولذا فإن تطويره يعد أمراً شاقاً، لكن هناك دعاة كثيرون جداً جمدوا على الأساليب الموروثة عن الجيل السابق، ولم يستطيعوا على مستوى المضمون ملامسة الاهتمامات الجديدة للذين يخاطبونهم، وهذا يعود إما لعدم إدراكهم للمستجدات، وإما لعدم امتلاكهم للطاقة الروحية والبعد الذهني اللذين يحتاجهما كل تجديد . بعض هذا الفريق لا يدرك الفرق بين سمات الخطاب المكتوب والخطاب الشفوي، وبعضهم لا يدرك الفرق بين الأسلوب المناسب لخطبة الجمعة والأسلوب المناسب للحديث في إذاعة، أو محاضرة، والحديث المناسب للحديث في قناة فضائية، وهؤلاء لهم بعض العذر لأن كثيراً منهم لم يطلعوا على ذلك في أي مادة من المواد المقررة عليهم !.

ج – أستطيع أن أذكر على نحو موجز جداً ملامح الذائقة الجديدة الظاهرة، والأخذة في التشكل من خلال الإشارات الآتية :

❁ تستحسن الذائقة الجديدة أن يتحدث الداعية بثقة ولكن من غير جزم وتأكيد في كل الأمور، أي يجزم في مواضع الجزم، ويظهر الشك، ويستخدم العبارات الدالة على الترجيح حين يقتضي الأمر ذلك، لكنه في كل الحالات واثق من قوله . بعض الدعاة - فيما ألحظ - لا يزال يقسم الأيمان المغلظة في بعض أحاديثه، ويُظهر من الوثوق في طروحاته على نحو يتجاوز الواقع، وهذا لم يعد مقبولاً .

❁ الذائقة الجديدة تفضل الصوت المنخفض والكلام البطيء - نسبياً - على الصوت المرتفع، وعلى الكلام السريع المتتابع، وقد زال الاعتقاد القديم بأن الأرفع صوتاً هو الأقوى حجة، كما زال الاعتقاد بأن الهدر في الكلام دليل التمكن العلمي والثقافي، المهم هو قوة المضمون .

❁ صار من المطلوب اليوم التقليل من ذكر الميزات والسلبيات والفوائد . في الماضي كان الاعتقاد السائد، هو أن الحديث عن عشرين فضيلة للسواك، وعشرين سلبية للتخلف عن صلاة الجماعة - مثلاً - يعد شيئاً جيداً ودليلاً على النجاح في الإقناع، لكن هذا اليوم صار غير مرغوب فيه، لأنه يدل على الهذر والتزيد والافتعال، وفي هذا عودة إلى أسلوبه - صلى الله عليه وسلم - والذي كان يقتصد في ذلك على نحو واضح .

❁ المتحدث الجيد والمؤثر ليس الذي يكثر من المترادفات، ولا من التورية والجناس والمطابقة، وليس الذي يصوغ الجمل الإنشائية الرنانة، فهذا لم يعد جذاباً اليوم، إنما الجذاب هو سوق الحقائق بشكل منطقي، والاقتصاد في بهرجة الألفاظ، إلى جانب المجيء بالأدلة والبراهين التي

د. عبد الكريم بكار

تستند إلى الواقع أو المنطق المتماسك، وللأرقام والإحصاءات في هذا دور مؤثر جداً .

❁ وجود النصوص الشريفة في الخطاب الدعوي شيء أساسي، ولا بد من سوقها في سياقها الصحيح من غير تعسف أولي لأعناقها .

❁ حداثة المعلومات التي يسوقها المتحدث مهمة جداً، وثقة الناس في صدق مصدرها ومعرفته أيضاً مهمة .

د – السؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا، هو : كيف يحسّن الداعية الحريص والمهتم مستوى خطابه ليتجاوب مع هذه التغييرات التي أشرنا إليها ؟ في هذا السياق يمكن أن نذكر الآتي :

❁ انفتاح تخصص الدعوة في المعاهد والكليات، وانفتاح الجماعات الدعوية أيضاً على العلوم الحديثة التي تقدم دعماً أساسياً لثقافة الداعية وحِرَفيته، فالإعلام – مثلاً – يشتمل على العديد من المواد التي يحتاج الداعية إلى الاطلاع عليها، ولا سيما ما يتعلق بالتأثير وصياغة الرسالة الدعوية وكيفية تكوين الرأي العام . وتخصص العلاقات العامة يقدم للداعية معلومات أساسية في نوعية الأسلوب الملائم واستخدامه في التقرب إلى الناس وخدمتهم وفهم احتياجاتهم . وعلى الداعية أن يطلع كذلك على علوم الإدارة والاقتصاد وكل ما يتعلق بتنمية الشخصية، فهذه العلوم تضع الداعية في بؤرة الثقافة المعاصرة . وآمل أن نرى ما أشرنا إليه ماثلاً في مناهج الكليات وفي مناهج الجماعات الدعوية .

❁ الحرص على معرفة ردود أفعال المدعوين على الأسلوب الذي يتبعه الداعية في دعوتهم، وكنت اقترحت منذ مدة وضع صندوق في

كل مسجد لاستقبال مقترحات الناس حول الموضوعات التي يودون من خطيب الجمعة معالجتها وكذلك استقبال ملاحظاتهم على طريقة حديثه ومدى ملائمة المعلومات التي يقدمها لحاجاتهم . وقد أخذ بعض الأئمة بتطبيق هذا مشكورين، لكن هؤلاء نادرون !

❁ ليحاول الداعية مشاهدة الدعاة الممتازين المشهود لهم بالكفاءة، والاستماع إليهم، ثم التأمل في أسرار تفوقهم، أي الدخول إلى عوالمهم ومحاولة الوقوف على العوامل المؤثرة في تميزهم، وبعد ذلك توفير تلك العوامل في أسلوبه قدر الطاقة، وهذا شيء مهم . وأذكر في هذا السياق أن بعض الخطباء صاروا لامعين جداً في الأوساط الشعبية بسبب تقليدهم للشيخ عبد الحميد كشك - رحمه الله - ولغيره من الخطباء المعروفين .

❁ الوصية الأخيرة في هذا الشأن تتمثل في مراعاة أحوال المدعوين، فالناس اليوم صاروا سريعي الملل، وأشغالهم كثيرة، ولهذا فإن اختصار الداعية يشكل عامل جذب ونجاح ؛ وقد رأيت جوامع كبيرة مزدحمة بالناس ازدحاماً شديداً، وكان خطباؤها لا يملكون أي ميزة، تدعو إلى إقبال الناس عليهم سوى ميزة الإيجاز، فهم ينتهون من صلاة الجمعة، وأقرانهم من الخطباء ما زالوا في الخطبة الأولى!

٤ - الروح الإيجابية :

من الواضح أن من السهل علينا جميعاً أن ننزلق إلى مربع اليأس والإحباط، وأنا شخصياً لا أشعر في بعض الأحيان إلا وأنا أتحدث في المشاق والإخفاقات وانسداد الآفاق . كل الأشياء قابلة لأن تقرأ بعيون

إيجابية متفائلة، كما أنها قابلة لأن تقرأ بعيون سلبية وبروح مفعمة بالانكسار . وقد لا حظت أن كثيرين منا يتخذون من النصوص المشتملة على الوعيد الشديد ويتخذون من التاريخ وخيرية السلف، متكأ لتوبيخ الناس وإقناعهم بقلة الخير فيهم وكثرة الشر . وقد سمعت بأن أحدهم صلى الجمعة في مسجد، وصلى ابنه في مسجد آخر، وحين عادا إلى المنزل سأل الابن أباه عن موضوع الخطبة في المسجد الذي صلى فيه، فقال الأب : لم أستوعب كثيراً مما قال، لكن خرجت بانطباع أننا لسنا جيدين ! وهذا الانطباع دقيق جداً في الحقيقة لأن هذا الشعور ربما شكل القاسم المشترك بين كثير ممن يحضرون خطبة الجمعة، أو يحضرون موعظة أو حواراً بين بعض الدعاة . أنا هنا لا أدعو إلى تعليق قلوب الناس بأمور يصعب حدوثها، وإنما أدعو إلى تحسين الثقة بالله - تعالى - وبكرمه وقدرته، كما أدعو إلى أن نتلمس الأشياء والنقاط الإيجابية في حياتنا حتى لا نقع في شباك اليأس والإحباط . إن مما يساعد على تعزيز الروح الإيجابية الآتي :

أ - إذا عدنا إلى الماضي القريب فإننا نجد أن تفتح وعي الناس على جوانب الخلل في حياتنا كان محدوداً، وهذا كان يبعث فيهم شعور الرضا . أما اليوم فإن كثيرين لم يعودوا راضين عن أي شيء ممن حولهم، وصارت طموحاتهم أكبر بكثير من إمكاناتهم، ولذلك كثر التذمر، وكثرت الشكوى، ونحن نريد أن نشيع الأمل في النفوس لأننا مع اليأس نفقد القدرة على المبادرة والقدرة على الاستجابة للتشجيع، كما أن خواطرنا تصبح سوداء قاتمة، ومع الأمل يتحسّن كل شيء، وأيضاً نريد أن نتفاعل

مع قول الله – تعالى – " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ."وقوله صلى الله عليه وسلم :"بشّر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والنصر والتمكين في الأرض...."(١)

ب– لا نستطيع على ما يبدو أن نتفادى ذكر السلبيات في جوانب حياتنا المختلفة، بل ليس لنا مصلحة في ذلك،إذن فلنعوّد أنفسنا إذا تحدثنا عن خطأ أو خلل أو قصور... أن نتحدث عن وجود إمكانية للحل. وأن السامعين يمتلكون الأهلية للمساهمة في ذلك الحل. وهذا في الحقيقة ليس من باب التحايل الشعوري على الناس إذ من الواضح أنه ما من حالة مهما كانت سيئة إلا وهناك إمكانية لإدخال شيء من التحسين عليها.

ج– من خلال معايشتي للناس يتضح لي أنهم – على نحو عام– لا يرتاحون للحديث عن الحلول الكبرى والقفزات النوعية. ولا يرتاحون كذلك لذكر حلول توزّع مسؤولية إيجادها على مجهولين أو على جهات كثيرة،ومن هنا فإن الأمل يأتي من خلال الحديث عن أشياء صغيرة ومحدودة وتوضيح ما يمكن أن يقوم به الإنسان العادي الذي يعاني مما نتحدث عنه. لندع الحديث عن المشكلات الكبرى للاقتصاد وعن أزمات التربية والتعليم (هذا مجال الطرح النخبوي) ولنحدث الناس عن تدبير أمورهم على الصعيد الشخصي: كيف تتعامل الأسرة مع طفل عنيد، كيف تربي الطفل الذكي أو الموهوب. كيف تحسّن عادة القراءة

(١) رواه أحمد وغيره.

لدى أبنائها الصغار، كيف تتمكن من صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، كيف تربي أطفالها على حب الله -تعالى- ورسوله- صلى الله عليه وسلم- كيف تستخدم التلفاز الاستخدام الآمن وهكذا وهكذا.

د- مما أعده من الروح الإيجابية عدم تحميل الناس ما لم يكلفهم الله- تعالى - بحمله من هموم الأمة وأشكال القصور في الحياة العامة. إن كثيراً من الإحباط يسود حين نقول للناس : إننا ننفق على البحث العلمي من إجمالي الناتج الوطني عشر ما تنفقه الدول الأخرى من ناتجها القومي، وحين نقول: الوضع الاقتصادي لدينا بائس، و ٣٠٪ من المسلمين يعيشون على أقل من خمسة دولارات في اليوم. إن هذا الكلام مهم لشرح الحالة الراهنة،لكن السؤال المطروح هو : هل نحن بهذا الكلام نحفّز الناس على عمل شيء أو أننا نوفر مادة تزيد الناس إحباطاً من خلال تداولها في مجالس السمر؟ أنا غير متأكد من نتائج هذا الطرح تماماً، لكن يبدو لي أن الاقتصاد فيه شيء جيد،والعمل عوضاً عن ذلك - على توضح المشكلات الصغيرة التي يمكن للناس المساهمة في حلها، كما أشرت من قبل .

هـ - إذا أردنا للروح الإيجابية أن تسري في أوصال الأمة، فلنركز على شيئين :

الأول : هو حب الخير من الصدقة وإغاثة الملهوف وقرض المحتاج ورعاية اليتيم وقضاء الحوائج وإصلاح ذات البين . إن هذه الأمور تجعل فاعلها يشعر بالقرب من الله - تعالى - وبالإنجاز والأمان .

الثاني : تدعيم الجانب الروحي لدى الإنسان المسلم من خلال التركيز على أمور تشكل جوهر التدين، من مثل الصدق والإخلاص وتذكر الدار الآخرة، بالإضافة إلى الإكثار من التعبد، ودوام مراقبة الله – تعالى – والشوق إليه، والثناء عليه، والحياء منه . إن هذه المعاني توفر مصدراً عظيماً للمسرّات الروحية وراحة البال وهدوء الخاطر .

٥ – استخدام الوسائل الجديدة في الدعوة :

أتاح التطور التقني السريع والمتلاحق فرصاً جديدة وعظيمة للتأثير في الناس، وهذا واضح لا يحتاج إلى شرح، ولهذا فإن التفكير يجب أن ينصب على كيفية الاستفادة من الوسائل الجديدة في تبليغ الرسالة والتواصل مع الناس، ولاشك في أن كثيراً من الأخيار قد تنبهوا إلى هذا الأمر، وبدؤوا فعلاً بتطوير أساليبهم الدعوية، ولعلي هنا أقدم المقترحات التالية :

أ – العمل الدعوي عمل عالمي وكبير، والمهتمون به في أنحاء الأرض، يعدّون اليوم بعشرات الملايين من الحريصين والغيورين، ولا شك أن كثيراً من الدعاة يحاولون استخدام الأدوات الملائمة لأوضاعهم، ولكن من الصحيح أيضاً أن هناك أفكاراً بناءة كثيرة يمكن نقلها من بلد إلى بلد، كما أن هناك إمكانات كثيرة لم ينتبه إليها الناس، وهم في حاجة إلى من ينبههم إليها . لأجل هذا أقول : إننا في حاجة إلى موقع ضخم على الإنترنت، يتم تخصيصه لتبادل الأفكار والآراء حول الأساليب والأدوات الدعوية الجديدة . هناك أيضاً تجارب دعوية ناجحة و أخرى لم تنجح، ويعرف

أصحابها أسباب إخفاقها، ونحن في حاجة ماسة إلى الاطلاع على كل ذلك . هذا الموقع يمكن أن تؤسسه إحدى الجهات الحكومية، ويمكن أن تؤسسه جماعة دعوية، كما يمكن أن يؤسسه بعض الأفراد، ويتم فتح باب المشاركة لمن يشاء، وأنا واثق أن كثيرين جداً سيمدونه بما لديهم . ما رأيكم هل هذه فكرة ثرية ؟

ب – من المشكلات التي كانت تواجه الدعاة على مدار التاريخ، كيفية الوصول إلى الناس وكيفية عرض ما لديهم من علم وفكر وهدى عليهم، وقد أخذت هذه المشكلة بالانحسار شيئاً فشيئاً من خلال وسائل الاتصال الحديثة، خذ على سبيل المثال إمكانية التواصل التي وفرها (الجوال) اليوم، حيث صار بالإمكان التواصل مع معظم الناس في أي وقت وأينما كانوا بطريقة سلسة ومنظمة . المهم أن نبدع في إيجاد المضمون الملائم لرسائل الجوال، وأن ننشط في تكوين الأطر الفنية، وتوفير رؤية للاستفادة من هذه الوسيلة الخطيرة .وقد بدأت بعض الجهات بحمد الله بتوظيف هذه الإمكانية، ولكن أؤكد على أننا مازلنا في بداية الطريق.

ج – شبكة الإنترنت هي الأخرى توفر قدراً هائلاً من التواصل مع الناس، وقد كثرت المواقع الدعوية والتربوية بحمد الله، لكن نريد أن نفكر في كيفية الاستفادة المثلى من (البريد الإلكتروني)، حيث تزداد باستمرار أعداد الذين لهم عناوين إلكترونية، ويبدو أن تشكيل أطر فنية وأخرى تجهز المضمون الدعوي للرسائل الإلكترونية – يظل الخيار الأنسب .

د – اللوحات الإعلانية والشعارات والدعايات على الفضائيات

وعلى الإنترنت أيضاً وسائل مهمة في تبليغ الناس والتواصل معهم، وكلنا يذكر الأثر النفسي الجميل الذي تتركه بعض اللوحات الموجودة على جوانب الطرق هنا في المملكة، والتي كتب عليها صيغ مختصرة مثل (الحمد الله) و (سبحان الله) و (أستغفر) و (صل على النبي) إن مئات الألوف من الذين يمرون من جانب تلك اللوحات يذكون الله - تعالى - ويجدون فيها حافزاً قوياً على ذلك . وقد رأيت بعض المحلات التجارية، وقد أحسن أصحابها إذ ركّبوا على أبوابها أجهزة تنطق بأنواع الثناء على الله - تعالى - كلما دخل منها أحد أو خرج . هناك إمكانيات كبيرة لأشكال أخرى من التواصل مع الناس، وأذكر أنني كنت اقترحت على بعض الناس أن يقوموا بكتابة قصاصات، فيها بيان لأحكام شرعية، أو فيها بعض الحكم والمواعظ و الأقوال المختارة ، ويتم وضع تلك القصاصات في بعض العلب الإلكترونية، مثل علب المناديل مثلاً. والمراد هو الوصول إلى الناس ومحاصرتهم بأنوار الرسالة المحمدية وبهديها العظيم .

في الختام أحب أن أقول إذا تذكرنا أن كل عمل صالح يقوم به أحد المسلمين نتيجة دعوتنا له أو حثنا إياه عليه، أو بسبب مساعدتنا له . نكون شركاء له في الأجر - فإننا بالتأكيد سنبدع في تجديد الخطاب الدعوي وتطوير وسائله وأساليبه، والله حسبنا ونعم الوكيل .

في
التربية والتعليم

- في التربية
- في التعليم

مبادئ تربوية عامة

١ - التربية أم الحيرة :

لست أدري إن كنت على حق إذا قلت : إن التربية هي العمل المحيرُ للعالمين، فأنا لا أعرف مجالاً من مجالات الحياة، فيه من الالتباسات والتداخلات وفيه من الحدس والتخمين وغموض الرؤية - كالذي أراه في المجال التربوي . أنا لا أريد من هذا أن أقول : إنه ليس هناك مبادئ وقواعد ومسلمات تربوية، وإنما أريد أن أشير إلى أن ارتباط المبادئ والقواعد التربوية بما نريد تحقيقه على صعيد شخصية الطفل، هو ارتباط غير مضمون، وغير متين، وهذا - والله أعلم - يعود إلى عدم معرفتنا بدرجة استعداد الطفل لتقبل ما نقوله له ومدى المرونة النفسية والعقلية الموجودة لديه، كما يعود إلى عدم معرفتنا بالوزن الحقيقي لكل أسلوب تربوي نتبعه، فنحن قد نعول على التدليل أو الشدة والضبط أو الإيحاء أو الشورى في تنشئة الطفل، لكن لا نعرف تماماً مدى تأثير ذلك في إصلاح حال الطفل، وقد تكون هناك أسباب أخرى . خبرات العالم التربوية تتراكم، والبحوث التربوية تزيد يوماً بعد يوم، ومع هذا لا يشعر كثير من الناس أن وضع التربية بات أفضل من السابق، كما لا يشعرون أن أخلاق الأبناء صارت أجمل وأحسن، وهذا شيء يبعث على الضيق . كثيرون الذين يتصلون بي، ويستشيرونني في شان أبنائهم، فأنصح،

وأشير، وبعضهم يقول : جربنا ما تقول، فجاء بنتائج عكسية ! وآنذاك أنصح بشيء آخر، وأبدو في نظر نفسي أشبه بطبيب تخرج حديثاً من الجامعة، وأخذ يصف لمرضاه أدوية لا يعرف خصائصها، وكلما شكا له مريض بعدم استفادته من الدواء، وصف له دواء آخر ! وصرت حين أشير وأنصح أتذكر الآية التي كان يتلوها الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - حين كان يُفتي في بعض المسائل : ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (الجاثية:٣٢) فإذا حرت في أمر تربية أبنائك، فاعلم أنك لست وحدك في هذا، فالبلوى عامة ؛ والله المستعان . علينا حين نذكر ضعفنا وحيرتنا في أمرنا، أن نجأر بالدعاء إلى الله - تعالى - بأن يصلح لنا ما عجزنا عن إصلاحه، وأن يبلغنا في أبنائنا، ما لم نعرف كيف نبلغه، كما فعل خلّص عباد الله - تعالى - من قبل : ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف:١٥) .

٢ - صبر لا ينفد :

حين نشرع في تربية الطفل فإن من المهم ألا ننسى المعاناة التي لقيها أهلنا حين قاموا بتربيتنا، إننا لن نستطيع أبداً إحصاء المرات التي نهينا فيها عن أشياء لا تليق، كما لا نستطيع إحصاء الأوامر التي لم ننفذها، ولا المرات التي أعطينا فيها لأهلينا وعوداً وعهوداً، ثم نكثنا فيها، إن تذكُّر ذلك وأمور أخرى من هذا القبيل سوف تدلنا على شيء مهم هو الصبر ثم الصبر، فالطفل لا يتلقى نصائحنا ورسائلنا، ولا يفسرها بالمضمون الذي نريده، إن جهاز الفهم لديه غير ناضج بالقدر الكافي فهو لا يقدّر الأضرار التي تترتب على سلوكٍ ما كما يقدّرها الكبار، والجهاز الأخلاقي، هو

الآخر يتأخر أيضا في النضج، وعلى سبيل المثال فإن الطفل وهو في سن الخامسة يكذب دون أن يشعر بالحرج، ويتحدث في أمور من نسيج خياله دون أن يشعر بمشكلة عدم وجودها في الواقع . أضف إلى هذا أن مرونة الطفل في الاستجابة لما نقوله له غير كاملة، ولهذا فإن القول بأن الطفل مثل العجينة في اليد، يمكن أن نشكّله كما شئنا - غير دقيق، فالله - تعالى - فطر كل الكائنات الحية على السعي الدائم نحو الاستقلال، ومهمتنا ليست في إذابة الطفل في المجتمع، وإنما في إيجاد قدر من التكيف الاجتماعي مع المحافظة على الخصائص الشخصية لذلك الطفل. في عقولنا ونفوسنا صغاراً وكباراً أمور لا ينضجها إلا الزمن، ويجب أن نمنحه الفرصة .لكن يمكن أن أقول : إن الصبر صبران : صبر سلبي وصبر إيجابي . معظم الناس يفهمون من الصبر الصبر السلبي، وهو الذي يعني انتظار الصبي حتى يكبر ويعقل، ويهدأ، وهذا ليس صبراً، وإنما هو نوع من الإهمال . الصبر المطلوب هو الصبر الإيجابي والذي يعني تفهمنا لصعوبة ترسيخ المفاهيم والأخلاق في شخصيات الأطفال وسلوكاتهم، وحاجة ذلك إلى الزمن، ويعني كذلك المحاولة المستمرة في الإسراع في إنضاج نفوس الأطفال وعقولهم من خلال التجديد في الأساليب التربوية، ومن خلال تكثيف التواصل معهم، وتلافي الأخطاء التي نقع فيها .

٣ - مصلحة الطفل أولاً :

نحتاج ونحن نربي إلى استخدام القسوة أحياناً وممارسة نوع من الضغط على الأطفال، والذي يصل إلى حد العقوبة بل الضرب أحياناً . في كل الأحوال ينبغي أن يشعر الطفل أن ما نقوم به يصب في مصلحته،

ويستهدف تحقيق الخير له . وهذا ليس بالأمر اليسير، لأن الطفل يقرأ تصرفاتنا معه قراءة خاصة، فإذا فرضنا عليه أن ينام الساعة التاسعة، أو منعناه من الاختلاط بأحد أبناء الجيران، أو منعناه من مشاهدة بعض البرامج.فإنه قد يفسر ذلك على أنه نوع من التسلط عليه، أو أنه انتقام منه بسبب خطأ سابق وقع فيه، أو انه يدل على عدم تفهمنا لحاجاته الحقيقية. كيف نستطيع إفهام الطفل أن ما نقوم به لا يستهدف سوى إسعاده وتحقيق الخير له ؟

أعتقد أننا في هذا السياق في حاجة إلى أمرين :

الأول : غمر الطفل بمشاعر الحب والحنان والعطف، وهذا يتم من خلال الكلام الجميل اللطيف، ويتم من خلال معانقته وتقبيله وإشعاره باهتمامنا به .

الثاني : أن نتعود تعليل الأوامر والنواهي التي نصدرها إلى الطفل، نقول : لا تشاهد هذا الفيلم، لأن فيه عنفاً يؤدي إلى توتر أعصابك، ونقول نم مبكراً حتى تذهب إلى المدرسة وأنت نشيط، ونقول : اذكر الله – تعالى – قبل النوم حتى ينشرح صدرك وتطمئن نفسك وهكذا. بعض الآباء – هداهم الله – يحوّل التربية من كونها خدمة جليلة يقدمها إلى أبنائه إلى نوع من الاستعباد والسيطرة غير السائغة، أنا أعرف –كما تعرفون– أشخاصاً كثيرين يلزمون أبناءهم بالجلوس مع ضيوفهم من أجل خدمتهم ساعات طويلة، وبعضهم يلزم أبناءه بالذهاب معه إلى بيوت الأقارب والأصدقاء، وبعضهم يفرض على الطفل علاقات مع أبناء أقربائه . وهو

يدعي في كل ذلك أنه يعمل لمصلحتهم ! . لا يصح أبداً استغلال بعض الأعراف أو استغلال الحق الأدبي الذي يتمتع به الأب أو الأم في قهر الطفل وحمله على ما يكره . نعم علينا تعويد الأطفال العادات الحسنة، لكن الأسلوب الصحيح لتحقيق ذلك ينبغي أن يكون الإقناع والتفاهم، وليس القهر والإكراه .

٤ - التربية شيء من كل شيء :

لنتخذ من التوازن والاعتدال والشمول أرضية لحراكنا التربوي، وحين نفعل ذلك سنجد أننا فعلاً أقرب إلى النجاح في توجيه الطفل والتأثير فيه . السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو : هل نحن قادرون على عمل ذلك، أم أن تربيتنا لأبنائنا تظل صدى لتركيب شخصياتنا، وامتداداً للتربية التي تلقيناها عن آبائنا وأمهاتنا ؟

إذا أردنا أن نكون صرحاء - والصراحة مزعجة أحياناً - فإن علينا أن نقول : إن معظم الناس يربون أبنائهم بطريقة نصف واعية، ونحن نلاحظ في هذا السياق أن من استخدم أهله الشدة في تربيته، مال إلى استخدامها مع أبنائه مع أنه كان في صغره منزعجاً من ذلك . ومن مال أهله إلى التعامل معه بالدلال واللطف، فعل نحواً من ذلك مع أبنائه - وهناك شذوذات كثيرة - وهكذا وهكذا . إذن نحن في حاجة إلى أن نتخلص من أسر المألوف الشخصي والاجتماعي في التربية، وفي حاجة إلى المزج بين الأساليب الثنائية : في بعض الأحيان يجد الطفل أننا حرفيون متشددون، ومدققون في كل شيء، وفي بعض الأحيان نكون

متسامحين، نتحدث في العموميات، ونغض الطرف عن الهفوات . في بعض الأحيان ندلل ونمنح العطف بسخاء، ونلين على نحو مدهش، وفي بعض الأحيان نتشدد، ونظهر الخصومة والعتب . في ظرف من الظروف نراقب، ونتابع، وفي ظرف نثق، ونتجاهل . في ظرف نغدق المال إغداق الأثرياء المنعمين، وفي ظرف نظهر بمظهر الممسك الشحيح . هنا أيضاً سؤال يطرح نفسه، وهذا السؤال هو : هل كل الأطفال يحتاجون إلى هذا التنوع في الأساليب التربوية ؟

الحقيقة أن المقصود الأساسي من قولنا : " التربية شيء من كل شيء " هو أن نكون قادرين على التنيوع، وعلى الانتقال من أسلوب إلى آخر . أما التنوع نفسه، فلا ينبغي أن يكون هدفاً لأن الأسلوب يظل عبارة عن أداة في قبضة الغاية، وقيمته مستمدة دائماً من تحقيق الثمار التي نتطلع إليها، لكن عليَّ أن أقول : إننا قد لا نحتاج إلى التنوع في الأسلوب بشرط أن نلزم الوسطية والاعتدال في تعاملنا مع الطفل : ندلل من غير إسراف، ونراقب من غير إسراف، ونمنح المال من غير إسراف، ونعطي من غير إسراف، ونغض الطرف من غير إسراف، ونمازح الطفل أيضاً من غير إسراف . لكن مع هذا قد يكون أحدنا فعلاً متوازناً في أساليبه التربوية وابنه يرتكب الأخطاء، ويقصر في الواجبات، وفي هذه الحال فلا بد من استخدام أسلوب تربوي جديد بتركيز أشد، لعله يكون أنفع . حين ننوع في الأساليب التي نستخدمها، وحين نلزم جادة القصد والاعتدال، فإن الطفل يشعر بأننا منطقيون في التعامل معه، وهذا يجعله يستجيب لما

نريده منه . ولا يمكن لتنظيري هذا في هذه المسألة أن يكون شافياً كافياً، فأنا أعرف عدداً غير قليل من الناس فعلوا كل ما أشرنا إليه، ومع هذا فإنهم يشعرون بخيبة أمل تجاه أبنائهم أو بعضهم ! هكذا هي التربية، وهذه هي طبيعة هذا المجال .

٥ - الأسرة قلعة التربية :

يشعر الطفل في أعماقه بحب والديه ويدرك الجهد الذي يُبذل يومياً من أجل راحته والحفاظ عليه، ولهذا فإنه يشعر بالامتنان نحوهما، وينتظر الفرصة لرد الجميل لهما . هذه الوضعية الشعورية تجعل الطفل يتشرب دون وعي الأخلاق والقيم والمفاهيم السائدة في المنزل .صحيح أنه قد لا يعكسها على نحو كامل في سلوكه، لكني متأكد أنها تضرب بعيداً في أغوار نفسه، وبعضها صار جزءاً من عقله، كما صار جزءاً من مكونات رؤيته للحياة . لا أريد الخوض في تفاصيل واجب الأسرة التربوي نحو أبنائها، فهذا حديث يطول، لكن أود إبداء ثلاث ملاحظات جوهرية :

أ - أنا أود أولاً أن ننظر إلى اهتمامنا بأسرنا، و السعي إلى إصلاح شأنها وتحقيق الكفاية المعيشية لها، على أنه نوع من العبادة والتقرب إلى الله - تعالى - وهذا نجده في عدد من النصوص منها قوله - صلى الله عليه وسلم -: " من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين " وضمَّ أصابعه .

وقال في فضل النفقة على العيال : " أفضل دينار، ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله " .وأنا أذكّر بهذا الثواب العظيم لأن التربية الجيدة تتطلب الكثير من العمل والتضحية والعطاء، فلنقدم لأبنائنا ما علينا أن نقدمه بطيب نفس لأن الله - تعالى - يخلفه، ويثيب عليه . أمر آخر أود أن أشير إليه في هذا السياق هو أن الشكوى المريرة من واقع الأمة، والتي نسمعها في كل مكان، لن تتراجع إلا من خلال تغيير واقع الإنسان المسلم، وتغيير ذلك الواقع على المستوى الإستراتيجي يتم من خلال رفد الأسر المسلمة للمجتمع المسلم بنوعية جديدة من الأطفال والفتيان والشباب، يؤدي وجودها إلى تحسين المزاج العام للأمة، وفي هذا السياق أرجو أن نفكر بالمساهمات التاريخية الجليلة التي قدمتها الأسر المسلمة للأمة من خلال إنجابها القادة والعلماء والمفكرين والرجال العظام الذين كان لهم الفضل في قيادة الأمة في الظروف الصعبة وفي تعليمها وإرشادها وتثبيتها على الإيمان . والله سبحانه - لا يحرم تلك الأسر من الأجر، وقد قال في محكم كتابه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور:٢١).فالله بلطفه وكرمه يجمع شمل الأسرة الواحدة في مستقر رحمته، ويرفع الأدنى منزلة إلى الأعلى من الآباء والأبناء ليكتمل أنسهم، وتقر عيونهم، وقد قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول يارب :

قد عملتُ لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به " ثم تلا ابن عباس الآية (١) . فيا أيها الآباء ويا أيتها الأمهات إنكم بكل جهد تبذلونه في خدمة أبنائكم وتحسين أوضاع أسركم تضيفون نقطة إلى رصيد الأمة، وتضيفون شيئاً إلى رصيد حسناتكم عند الله - تعالى - فأبشروا و أمّلوا .

ب - دعونا ننطلق في تربيتنا لأبنائنا من اعتقاد أن الإنسان كائن يتعلم باستمرار، فما نعرفه دائماً ناقص، ويحتمل التكميل، ونحن حين شرعنا في تأسيس أسرنا لم نكن نعرف عن أصول التربية إلا القليل، كما أن الأسلوب التربوي الذي اتبعه الكبار في تربيتنا كانت تشوبه بعض الشوائب - بسبب قصور البشر - أضف إلى هذا أن معرفتنا بصواب سلوكياتنا ومواقفنا وأساليبنا التربوية، هي الأخرى ستظل ناقصة، وسيظل الواحد منا يقول : ياليتني لم أسمح لابني بأن يصاحب فلاناً، وياليتني شجعته على دراسة التخصص الفلاني . انطلاقاً من كل هذا فإن علينا أن نربي في إطار الآتي :

• لنحاول أن نتعلم، ونقرأ، ونستمع من أجل معرفة الأسس التي علينا اتباعها في تربية الأولاد . كثيرون يظنون أن التربية تتم من غير معرفة مكتسبة، ولذلك فإنك ترى الرجل مستعداً لإنجاب عشرة من الولد دون أن يحدّث نفسه إن كان في حاجة إلى قراءة كتيب أوسماع شريط أو استشارة خبير في التربية ! وترى الأم وهي تبذل جهوداً مضنية في خدمة أسرتها دون أن تفكر في قراءة كتاب . في سمات الأم الفاضلة

(١) تفسير ابن كثير ٧ . ٤٣٣ .

ودورها التربوي داخل الأسرة ! آن لهذا الأمر أن ينتهي، لأن استمراره خاطئ بكل الاعتبارات .

• الأطفال يسمعون منا، ويرون، وهم بفطرتهم يصدقون عيونهم أكثر من تصديقهم لآذانهم، وبما أننا لا نستطيع أن ننفك عن الخطأ وعن التقصير، وعن التصرف غير اللائق على نحو كامل ومطلق، فإن هذا يفرض علينا أن نعقد العزم على أن نحاول ونحن نربي صغارنا إعادة تهذيب أنفسنا، وتغيير بعض أوضاعنا : الأب الذي يدخن مطالب إذا كان فعلاً يحب أن يكون أبناؤه في صحة جيده مطالب بأن يمتنع عن التدخين، وإلا فإن من الصعب عليه منعهم من التدخين أو تحذيرهم منه . إذا كان الوالد لا يذهب إلى صلاة الجماعة، فإن من غير المنطقي أن يحث أولاده على الذهاب إلى المسجد، ولو فعل ذلك ففي الغالب لن يستجيبوا له . و إذا كانت الأم تكذب حين تتحدث أمام جاراتها عن أسعار أثاث بيتها أو أسعار ملابسها، فإن من الصعب عليها بأن تقنع بناتها بأن الصدق فضيلة. إننا حين نأمر الأطفال بشيء لا نفعله، وحين ننهاهم عن شيء لا نتورع عن الوقوع فيه، فإنهم يقولون في أنفسهم : " انظروا في المرآة"!.

إذن ونحن نعلّم نتعلم، كما أننا ونحن نربي أبناءنا نربي أنفسنا أيضاً، وهذا لا يشكل عبئاً، وإنما هو فرصة ثانية للاستمرار في الارتقاء بأنفسنا في مدارج الكمال . إنها مجاهدة للنفس مأجورة، ومثمرة، بإذن الله .

ج - في اعتقادي أن من المهم أن ينصبّ الكثير من جهدنا التربوي على ما يمكن أن نسميه(هندسة الجو الأسري) حيث إن ما يسود في البيت من قيم وعادات ومفاهيم يؤثر على نحو كبير في تكوين شخصية الطفل.

هندسة الجو الأسري تحتاج إلى أن يتفق الأبوان على بلورة (الدستور التربوي) وهو عبارة عن عدد من المقولات القصيرة التي تلخص بعض القيم الأساسية التي تؤمن بها الأسرة، وتلك المقولات كثيرة في الحقيقة، أذكر منها على سبيل المثال الآتي :

- نحن في هذا البيت لا نغتاب الناس .
- الاستيقاظ إلى صلاة الفجر يشكل أولوية لدينا .
- لا مكان للألفاظ البذيئة في هذا البيت .
- التراحم والتعاطف والتكاتف أساس في علاقتنا .
- لا نقبل بغير النجاح والتفوق لأي فرد من أفراد الأسرة .
- على كل واحد في هذا البيت التمسك بالسُّنة في شأنه الخاص.
- خصوصية كل من في هذا المنزل محترمة .
- الفوضى في المنزل مرفوضة .
- نسعى جميعاً إلى أن نقدم نموذجاً طيباً في التعامل مع الآخرين.

إن هذه العبارات وأشباهها تؤثر على نحو مضاعف إذا كتبت في لوحات جميلة، وعلّقت في أماكن مختلفة للمنزل . وحين يسلك أي فرد من أفراد الأسرة سلوكاً يخرج عن هذه المعاني، فإن على الباقي القيام بتذكيره ومناصحته .

٢ - قيم وأهداف تربوية

في عالم التربية تختلط القيم بالأهداف على نحو عجيب، وربما كان

ذلك لأن فصلنا بينها هو في الأساس فصل متعسف أو غير موضوعي، وهذا هو الراجح، فنحن حين نقول : إننا نريد تقوية الوازع الداخلي (الضمير) لدى الطفل نجعل من ذلك هدفاً مع أن الوازع الداخلي القوي وحضوره اليقظ، يشكل قيمة وهكذا . وأنا هنا لا أريد التحدث على نحو شامل، وإنما أريد توضيح وجهة نظري في معظم الخطوط الأساسية في هذا الموضوع :

نحن المسلمين نستطيع على المستوى النظري تحديد هدف الأهداف في هذه الحياة بسهولة، فنحن عباد الله - تعالى - ووجودنا في هذه الأرض لعبادته وبلوغ رضاه، وبالتالي فإن جهدنا التربوي يستهدف تنشئة طفل يسعى إلى رضوان الله، ويمتلك بالتالي كل المقومات والأخلاق والصفات التي تساعده على ذلك . هذا يعني أن مساعينا التربوية تصبّ في خدمة معتقداتنا ومبادئنا . وحين يدور نقاش بيننا في هذا الشأن تجدنا متفقين في العموم، لكن السؤال الذي يطرح نفسه دائماً، هو هل هذه البلورة النظرية كافية لأن يسير جهدنا التربوي في اتجاه الهدف الذي ذكرناه ؟ الجواب - بالطبع - لا، حيث إن من الواضح أن كل الأمم تجد نفسها على صعيد الأهداف مطالبة بثلاثة أمور أساسية :

أ - بلورة الهدف وتحديده بوضوح .

ب - تعميم الهدف وشرحه لأكبر شريحة ممكنة من الناس .

ج - إبقاء الهدف طافياً على سطح الوعي، وحاضراً أثناء الممارسة التربوية اليومية .

نحن على صعيد الصحوة الإسلامية متفقون - فيما أحسب -على الهدف من التربية اتفاقاً مقبولاً إلى حد بعيد، لكن هناك الكثير من المثقفين الذين ينتمون إلينا قد لا يعطون هذا الهدف الاهتمام الذي نعطيه إياه، وقد يرون أنه ليس الهدف الأسمى. وإنما هناك أهداف أخرى، وهذا على ما يبدو طبيعي، فنحن أمة كبيرة جداً وجعل الناس يجمعون على شيء وحيد ليس بالأمر الهينّ لكن هذا الذي اعتبرناه طبيعياً يشكّل على كل حال نقطة ضعف في البناء التربوي . التحدي الثاني الذي يواجهنا هو تعميم هذا الهدف على المربين من آباء ومعلمين . والحقيقة أن تعميم الهدف التربوي لا يقل أهمية في حال من الأحوال عن بلورته وتحديده، وما قيمة الأفكار التي تبقى في الأدراج أو الكتب أو الرؤوس إذا لم تبلغ الناس، ويعقلوها، ويتفاعلوا معها ؟ لذلك علينا أن نفكر من الآن فصاعداً في توفير الوسائل والأساليب التي تساعدنا على توصيل ما لدينا من مفاهيم تربوية للأسر في البيوت والمعلمين في المدارس . حين نفكر في الأشياء التي نحتاجها من أجل النهضة نجد أننا في حاجة إلى الكثير إلى الكثير ؛ والله المستعان . أما جعل الهدف حاضراً في أذهان الناس وضمن أولوياتهم إلى درجة توجيهه لأنشطتهم وسيطرته على قراراتهم، فهذا هو الشيء الشاق فعلاً . نسبة عالية من الآباء ونسبة أعلى من الأمهات المسلمات لا تستطيع استيعاب ما نقول بسبب الأمية، فعدم معرفة القراءة والكتابة تجعل تفاعل المرء مع الطروحات الفكرية والتربوية في أدنى درجاتها . ولدينا أيضاً عدد كبير من الناس المجتهدين في تحصيل لقمة العيش اليومية، وعدد آخر مماثل مشغول الذهن بكل شيء إلا الاهتمام بتربية أبنائه ! ولدينا فريق

من الناس يعرفون الهدف الذي أشرنا إليه، وكثيراً ما يستحضرونه لكن لا يملكون العزيمة والطاقة الروحية على العمل من أجله . هذه الأصناف موجودة فكيف يمكن دفع أهدافنا التربوية لتصبح في المقدمة ؟

ليس هناك من سبيل سوى التحدث عن تلك الأهداف في البيوت وفي المدارس ومجالس السمر ووسائل الإعلام، وأتمنى أن أرى لوحات عند مفترقات الطرق ولوحات إلكترونية كبيرة . كتب عليها عبارات موجزة وبسيطة، تذكّر الناس بما أشرنا إليه . إذا عرفنا ما نريد، فأنا واثق أننا سنجد الوسائل المطلوبة لبلوغه . كثير من الناس يقرأ هذا الكلام في هذا الكتاب، ويقرأ نحواً منه لكتّاب آخرين، وأتوقع منهم أن ينظروا إليه على أنه مثالي أو غير عملي أو غير مفهوم . وأنا شخصياً قد تعودت سماع مثل هذه الملاحظات على بعض ما أكتب، وتعودت أيضاً النظر إليهم بتفهم . لأنني أعرف أن الرؤى النهضوية لا تكون كذلك إلا إذا ابتعدت قليلاً عن الواقع، واحتاجت أيضاً إلى نوع من كدّ الذهن حتى تُستوعب .

٢ - الاستقامة على أمر الله :

نحن الآن نحيا في عصر العولمة حيث الانصراف شبه الكلي إلى المحسوسات والماديات، وحيث تعلق القلوب بالملهيات والمرفهات. فعلاً إني أشعر يوماً بعد يوم أننا في عصر جديد بكل ما تعنيه الكلمة من معنى . أنا هنا لا أريد ذم العولمة ولا مهاجمة المحرّكين لأنشطتها، لكني أريد أن أقول : إن الاهتمام بتدين الأبناء واستقامتهم وصلاحهم لم يعد في

بؤرة الوعي لدى كثير من الناس، وهذا في حد ذاته يشكل تحدياً كبيراً لنا . وصرت أشعر اليوم أن الهم المسيطر بات يتركز في كيفية ترفيه الأولاد وإدخال السرور عليهم، كما يتركز في كيفية جعلهم ناجحين متفوقين في دراستهم وأعمالهم، وهذا ليس سيئاً لكن السيئ هو خمود الاهتمام بصلاحهم واستقامتهم لدى كثير من الأسر . والحقيقة أن هناك من يلاحظ وجود تراجع لتأثير العقائد و (الأيد لوجيات) في توجيه السلوك وتنظيم ردود الأفعال، وهذا ليس عندنا فحسب، وإنما على مستوى العالم، وذلك يعود إلى عمليات (العولمة) حيث فتحت شهية الناس على المتعة واللذة واللهو، وأعطت للمال والنفوذ الشخصي دوراً جديداً ومميزاً في حياتهم . هذه الملاحظة في رأيي صحيحة، وهناك دائماً استثناءات . السؤال هو : كيف نربي الطفل على الاستقامة أو كيف نزرع في داخله القيم والمبادئ الإسلامية؟

للإجابة على هذا السؤال يمكن أن نذكر الآتي :

أ - التركيز على أصول الاعتقاد المتعلقة بـ (الخالق) - جل شأنه - وهذا شيء متوارث في أم التوحيد، فقد قال لقمان لابنه :﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:١٦) . لنركز على معاني عظمة الله - سبحانه - ووجوب إفراده بالعبادة إلى جانب ذكر حاجتنا إليه، وأن كل حياتنا في يده، وكل ما بنا من نعمة من فضله، بالإضافة إلى شرح المعاني المتعلقة بلطفه بعباده وبكرمه ورحمته . وعلينا استغلال المناسبات والأحداث اليومية لقول ما نريد قوله . والآن بحمد الله هناك كتيبات

كثيرة في المكتبات تشرح هذه المعاني، وتقدمها بطريقة مبسطة كما أن هناك الكثير من المواد الإعلامية الجيدة التي ترسخ هذه المعاني في نفوس الأطفال .

ب - تقوية الانتماء لأمة الإسلام وللدين الإسلامي وأهمية التزام المسلم بأمر الله - تعالى - والوقوف عند نواهيه، والتأكيد على أن المستقبل الحقيقي للمسلم ليس في هذه الدنيا، وإنما في الآخرة، ولعل من المناسب التركيز على التعبيرات والمفاهيم الآتية :

- الإسلام هو خاتم الأديان السماوية، ورسالته خاتمة الرسالات، ونبينا - صلى الله عليه وسلم - هو آخر الأنبياء .
- دستورنا هو القرآن، وهو محفوظ من التبديل بوعد الله - تعالى - وقد أتم الله لنا ديننا، ففيه كل ما يؤدي إلى فوزنا وفلاحنا .
- على المسلم أن يضبط سلوكه ويستفيد من وقته في إطار ما يريده الله منه، وذلك من خلال فعل الأوامر وترك النواهي وتطبيق السنة والتمتع بالمباحات وتناول الطيبات .
- مجاهدة النفس شيء أساسي في محاولة الاستقامة، حيث وسوسة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء .
- المؤمن قد يخطئ، لكنه يسارع إلى التوبة .
- الهاجس الذي يشغل بال المسلم هو : كيف أرضي الله - تعالى

- أكثر، وكيف أكون إليه أقرب .

• للمسلم على المسلم حقوق وواجبات ينبغي عدم التقصير فيها، ونفع العباد ومعاونة الضعيف وإغاثة الملهوف باب عظيم من أبواب التقرب إلى الله .

ج - في عصر العولمة تتضاءل إمكانات رقابة الأهل، وتتضاءل أيضاً سلطة المجتمع على الردع، والمدرسون - ولاسيما في المدارس الخاصة - استنفدوا كل احتياط سلطتهم في ضبط الطلاب، وما عاد أمام المربين سوى سبيل واحد هو تنمية (الوازع الداخلي) لدى الصغار، الوازع الداخلي (أو الضمير) هو العضلة الأخلاقية لدى الواحد منا، وهو الصوت النوراني الذي يجلجل في أعماقنا مرات كثيرة في اليوم . هذه العضلة يمكن أن تكون فعلاً رادعة عن كثير من الشر، ومحفِّزة على كثير من الخير، ويمكن لتقويتها القيام بالآتي :

• أن نربي الطفل على الشعور بمعية الله - تعالى - واطلاعه عليه وتذكيره بهذا المعنى على نحو مستمر، وأن نحثه على الإكثار من ذكر الله - تعالى - والتوكل عليه ورجائه وحده . لأن هذا يولِّد لدى المسلم نوعاً من الحياء من الله - سبحانه - . و نجد هذه المعاني في الموعظة الرائعة التي وجهها النبي - صلى الله عليه وسلم - لابن عباس حين قال :" يا غلام إني أعلمك كلمات : إحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذ استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على

أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف "(١)

• شيء مهم أن نستهدف بناء الكيان الداخلي للأبناء، وهذا الكيان يكون قويا كلما شعر صاحبه بأنه مستقل محترم،معتبر الرأي،ينظر إليه بإيجابية. بعبارة أخرى نريد أن يشعر الطفل أن لديه سوية من النضج و من الكرامة،تستحق المحافظة عليها،وهذه السوية تصل إلى حدود حياء المرء من نفسه عند إرادة الإقدام على شيء سيئ،إنه يقول في داخله:هذا لا يليق بي،أنا اكبر من أن أفعل كذا،لو أقدمت على فعل كذا، فسأكون منافقا،أظهر أمام الناس بمظهر الصالحين ، وأعمل في السر بعمل الفاسدين ... هذا يتطلب منا أن نشجع روح المبادرة لدى الطفل،وألا نطلب منه أن يكون حرفيا في تنفيذ ما يطلب منه بشكل دائم،وإنما نترك له الفرصة ليختار،بالإضافة إلى احترام خصوصياته،والتعامل معه على أنه صادق وموثوق،إلى جانب منحه الحرية الشخصية في إطار اللائق والمباح.

• دعونا نعوّد الطفل القيام بمحاسبه نفسه وتقويمها عوضا عن أن نحاسبه نحن.وهذه قضية مهمة،فقد تعود كثير من الآباء والأمهات تجميع الملاحظات والمآخذ على أبنائهم، ثم عقد جلسة لمحاسبتهم عليها.

وبعضهم يتمتعون بعيني صقر، كلما هفا الطفل هفوة صرخوا فيه، وهذا يجعل الطفل يشعر بأن التنبيهعلى أخطائه موكول إلى أسرته، وبذلك تضعف رقابته على نفسه . لماذا لا نعود الطفل والفتى أن يقول

(١) حديث صحيح . أخرجه الترمذي

: أنا في الأسبوع الماضي لم أدرس بشكل جيد، أنا في هذه السنة أشعر بالملل من الجلوس في البيت، أنا مقصر في قراءة القرآن ؟ لنقل للطفل : كيف تجد نفسك في هذه الأيام في كذا وكذا ؟ هل تشعر أنك تتحسن في كذا ؟ و ألا تشعر أنك في الأمر الفلاني كنت أفضل من اليوم ؟ وإذا لم يجب فلا نلح في السؤال .لنتعامل مع الأطفال على أنهم مكتملو المشاعر والأحاسيس، ولنحاول دائماً مراعاة تلك المشاعر قدر الإمكان

٣ - النجاح والتفوق :

النجاح قيمة إسلامية مهمة، لأن النجاح يعني القوة ويعني التفوق ويعني الحركة والنشاط والجدية والاهتمام والقدرة على المتابعة، وتأخير الرغبات . وهذه كلها قيم ممدوحة ومطلوبة إسلامياً وعالمياً . وقد ذكرت ابنة شعيب حين أشارت على أبيها باستئجار موسى عليه السلام صفتين أساسيتين تشكلان عماد الشخصية الإسلامية حيث قالت :﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦) . إن الأمانة تعني الاستقامة وحسن الخلق وقوة الإيمان . أما القوة، فإنها تعني الكفاءة والتفوق والجدارة والمهارة وحسن الأداء . حين يكون الشاب تقياً نقياً ناجحاً، فهذا يعني - إن شاء الله - الفوز بخيري الدنيا والآخرة . قد يلاحظ بعض القراء أنني من أكثر الكتاب الإسلاميين إبرازاً لمسألة النجاح، ومن أكثرهم اهتماماً بها، وهذا صحيح[١]، وذلك لأنني قد نظرت في الآثار التي يتركها الإخفاق والفقر والبطالة والارتباك في أمور العيش،

(١) صدر للدكتور المؤلف كتاب من منشورات مركز التربية من أجل النجاح .

فرأيت أنها المدخل إلى كثير من المآسي والعلل الأخلاقية والاجتماعية . وفي زمننا هذا صار حل كثير من المشكلات مفتقراً إلى المال، والمال لا يأتي إلا من خلال قصص النجاح التي يكتبها الناجحون من مختلف التخصصات وفي مختلف المجالات . والأمم التي تقهرنا اليوم، وتستلب حقوقنا، حققت نجاحات هائلة، والأمم التي تورّد لنا ما نأكل ونلبس وما نركب، وما نعالج به مرضانا، هي الأخرى حققت نجاحات كبيرة جداً . لهذا فإني اعتقد أن على الآباء والأمهات أن يعطوا مسألة تفوق أبنائهم قسطاً وافياً من اهتمامهم .نحن أمة كبيرة جداً، لكنها ضعيفة، وموقعها بين أمم الأرض اليوم موقف هامشي، ولهذا فإننا في حاجة ماسّة إلى أكبر عدد ممكن من الناجحين .

قد يقول قائل : اتفقنا على ما تقول، لكن هل تستطيع الأسر تحويل الكسول من أبنائها إلى مجتهد، وتحويل الفوضوي إلى منظم، والقانع الخامل المحبط إلى طموح مبادر متفائل ؟

أقول : نعم يمكن عمل الكثير، فالصفات السيئة الموجودة لدى كثير من الفتيان ليست وراثية، وإنما هي بسبب تأثير البيئة والجو السائد في البيوت والمدارس . نحن لا ننكر اختلاف الطباع والاستعدادات والميول لدى الأطفال، لكننا نعتقد أن السفينة حين تمضي فإنها تحمل معها الكَلّ والضعيف وصاحب المشكلات، على ما نشاهده اليوم في المجتمعات المنتجة والمصنّعة . ولعلي أشير إلى أهم ما علينا الاهتمام به على صعيد المفاهيم والقيم مما يساعد الأبناء على النجاح عبر المفردات الآتية :

أ - من المهم دائماً أن يشيع الأبوان في الأسرة المفاهيم المطلوبة للنجاح، وأن يحدثا أبناءهما عن الإمكانات التي في حوزتهم والفرص التي أمامهم، وأيضاً الدعم الذي تقدمه الأسرة لهم .لنقارن بين أسرة تلقب أبناءها بالألقاب التي تدل على الخيبة والغباء والعجز .... وبين أسرة تحمّس أبناءها، وتنفخ فيهم روح الثقة والعزة، وتقصّ عليهم أنباء عظماء هذه الأمة وأفذاذها، وتهيئ لهم كل ما يحتاجونه لكي يكونوا أشخاصاً مميزين . لنقارن، وسنجد أن للأسرة دوراً جوهرياً في مستقبل أبنائها .

ب - على الأسرة من البداية أن توضح لأبنائها أن النجاح الذي عليهم أن يسعوا إليه ليس أي نجاح وإنما هو النجاح الذي يتم بطرق مشروعة، ويقربُ العبد من الله - جل - ثناؤه - فالإنسان المسلم حين ينجح لا تكون ثمرات نجاحه له وحده،فأهله ومجتمعه وبلاده شركاء معه فيها . ونجاح الإنسان المسلم حتى يكون حقيقياً فينبغي أن ينظر إليه على أنه نجاح دنيوي وأخروي في آن واحد. هذا المفهوم في غاية الأهمية لأنني ألاحظ اليوم أن كثيراً من الأسر المسلمة تريد لأبنائها أن ينجحوا،وكفى! أما كيف يتحقق هذا النجاح ومدى مشروعيته،فقليل من يهتم بذلك!وهذا جزء من أزمة الوعي والالتزام التي نعاني منها.

ج- هناك مبدأ عظيم في النجاح،يقول"لكل جهد مضاعف عائد مضاعف".هذا المبدأ يوجب علينا معاشر المربين أن نعوّد الذين نربيهم بذل الجهد وتحمل المشاق وتذوق طعم العناء، لأنه لا حصول على نتائج كبيرة ولا حصول على إنجازات مشرِّفة من غير العمل الجاد.نحن في

هذه الدنيا نعيش في عالم أسباب ومسببات، والله-تعالى- لا يحرم الناس ثمرات جهودهم حتى لو لم يكونوا مؤمنين،ولهذا نجد أشخاصاً غير مستقيمين،لكنهم يديرون أعمالا ناجحة،ويخترعون أجهزة مذهلة،ونجد في المقابل أشخاصاً طيبين صالحين،لكنهم لم يخطّوا في سفر الحضارة أي جملة، وذلك لأنهم لم يكلفوا أنفسهم تحمل المشاق والصعوبات. لنقرأ في السير الذاتية لكل أولئك الذين نحترمهم، ونعجب بهم لنجد أن العظمة لا تأتي إلى أحد عن طريق الخطأ أو عن طريق المصادفة، فهناك دائماً أساس وثمن وسبب.

د- كثير من الآباء والأمهات يسيئون إلى أبنائهم منذ البداية حين يقولون لهم:إنهم ليسوا أذكياء ولا نابهين،ولهذا فإنهم لا يصلحون للدراسة الجامعية ولا لما فوقها،وينصحونهم بالبحث عن مهنة أو حرفة أو وظيفة ،فذلك انفع لهم. وهذا يشكّل خطأ فادحاً في فهم متطلبات النجاح . نعم إن الذكاء يساعد أصحابه على التفوق مع بذل جهد أقل مما يبذله غيرهم، لكن حاجة النجاح إلى التخطيط وبذل الجهد والطموح والمثابرة واستغلال الوقت أكبر من حاجته إلى الذكاء. ولو أجرينا اختبار قدرات لنماذج من الناجحين وغير الناجحين لوجدنا أن الفوارق بين قدرات هؤلاء وهؤلاء ليست كبيرة. والمجتمعات التي تسجل عدداً كبيراً من براءات الاختراع لا يتميز أبناؤها بالذكاء الخارق. لهذا علينا أن ننمي الصفات والأخلاق والمفاهيم التي تساعد على النجاح، ولنعرض نهائياً عن الحديث في موضوع الذكاء.

هـ - تريد لابنك أن يكون متفوقاً و متميزاً، علمه تعليماً جيداً ابحث له منذ البداية عن روضة أطفال ثم عن مدرسة ثم عن جامعة ممتازة . لدينا في كل مدينة عدد محدود من المدارس ذات السمعة العالية، وهذه المدارس في العادة يشتد الطلب عليها، وتكون تكاليف الدراسة فيها في كثير من الأحيان باهظة . لا بأس، ولا داعي للتردد إذا وجدت الإمكانية . إن الفارق بين خريج جامعي ممتاز وعادي فارق ضخم في الموقع الذي يحتله كل منهما، ولا سيما في القطاع الخاص . وبما أن زمان الأشياء العادية انتهى وصرنا في عصر الأشياء المتفوقة، فإن المتفوق في دراسته ومهنته واختصاصه يجد من الفرص اليوم ما هو أفضل بكثير مما كان متاحاً قبل ثلاثين سنة . بعض الناس يستثمرون فوائض أموالهم في شراء المزارع وإنشاء المشروعات ويتركون أبناءهم من غير تعليم، جيد، ويبخلون عليهم بالمساندة إذا أرادوا الانخراط في الدراسات العليا . وهذا عمل غير سديد فالمرجو من وراء تفوق الأبناء من المال أكبر من المال الذي يأتي عن طريق الاستثمار، هذا بالإضافة إلى أن التعليم الممتاز يغير الكثير من ملامح الشخصية، مما لا يقدّر بأي ثمن .

و - شجعوا الأطفال منذ الصغر على أن يحلموا، ويتمنوا، ويتطلعوا إلى المعالي، فهذه الأحلام، تصبح مع الأيام جزءاً من تركيبة أدمغتهم النامية، ثم لنحاول تحويل تلك الأحلام شيئاً فشيئاً إلى أمور ممسوكة باليد، إذا قال الطفل : أمنيتي أن أكون داعية كبيراً، فلنمض معه في ذلك، ولنحدثه عن أخبار الدعاة الناجحين، وعن النفع الذي يجريه الله - تعالى - على أيديهم، وعن العوامل التي أسهمت في نجاحهم . ولنحاول بعد هذا أن

د. عبد الكريم بكار

نبدأ مع الابن [1] ببعض الخطوات العملية من مثل البدء بحفظ القرآن الكريم، وحفظ عدد جيد من الأحاديث المختارة إلى جانب حضور بعض الحلقات العلمية في المساجد وغيرها، وهكذا نصنع مع كل التطلعات. وهذه نقطة مهمة، فالأطفال والمراهقون - وكثير من الشباب - تتملكهم الحيرة في شأن التخصص المستقبلي، ويمضي جزء عزيز من أعمارهم دون أي استغلال، وتدخل الأهل بوعي يساعد مساعدة كبيرة. البرامج العملية، هي التي تجعل الأهداف مبلورة وواضحة، والالتزام بالعمل والاستمرار فيه هو الذي يفرّق بين الأمنيات والمشتهيات وبين الأهداف.

ز - نريد للجدية أن تصبح جزءاً من أخلاق أبنائنا، لأن الناجح لا يكون إلا جاداً، وللجدية ركنان أساسيان ،هما: المثابرة وعدم التسويف. الالتزام بالإسلام مصدر أساسي للجدية لأن المسلم يظل على استعداد مستمر للقيام بالواجبات، والالتزام بالآداب وترك المنهيات إلى أن يلقى الله - تعالى - لكن هذا لا يكفي من غير توسيع مضمون ذلك الالتزام ليشمل كل الأعمال التي يتطلبها النجاح من القراءة والتدريب والتعلم واكتساب الخبرات، وهذا ما أرى كثيراً من شبابنا يفعلونه اليوم.

التسويف هو الداء الدويّ الذي يفسد معنى الجدية لدى الشخص. أعرف أناساً كثيرين خيّرين، ولديهم رؤية جيدة ونوايا حسنة، وهم يتحدثون منذ مدة بعيدة عن أشياء كثيرة يحبون القيام بها، لكنهم لم يفعلوا أي شيء، وذلك إما لأنهم يخافون من البدء والانقطاع قبل الإتمام، أو أنهم

(١) كل ما نقوله في هذا الكتاب ينطبق على الأبناء والبنات على حد سواء.

يخافون من الإخفاق، أو لأن التسويف صار أصلاً في حياتهم، وحين يصبح التسويف أصلاً، فإن العمل يصبح وفق المقولة الآتية : كل شيء تستطيع إنجازه غداً فلا تنجزه اليوم ! بعض الآباء قاموا بشيء جيد، هو أنهم عودوا أبناءهم منذ الصغر وضع جداول للأعمال التي عليهم إنجازها يومياً . وبعض الآباء والأمهات - طبعاً - يتواصلون مع أبنائهم على نحو دائم، ويسألونهم عن مشروعاتهم وبرامجهم وأهدافهم، ويتابعونهم على البدء في التنفيذ وعلى الاستمرار، وهذا ما ينبغي أن يفعله كل واحد منا

ح - هناك ثلاثة أمور أساسية في مسألة النجاح، وهي : الرغبة والقدرة والفرصة، وقبل أن أخوض في تفصيلها تذكرت شيئاً مهماً أود الإشارة إليه، وهو أن توفيق الله - تعالى - للعبد ومعونته له كثيراً ما يتجاوز كل الحسابات، فالله - جل ثناؤه - حين يعطي ويجود، يهيئ الأسباب ويلهم القلوب، ويوجد الفرص، ويشد العزائم ولهذا فإن علينا أن ندعو لأبنائنا بالتوفيق، وأن نعلمهم التضرع إلى الله - تعالى - والطلب منه، فإن خزائنه - سبحانه - مملوءة بالخير، وبيده تصريف الأمور .

الرغبة - كما ذكرت مهمة للنجاح، وحسب تجربتي ومشاهداتي، فإنه قلما يتفوق إنسان في أمر لا يهواه، ولا يرتاح إليه من أعماقه، لكن من المستحسن دائماً أن ننتبه إلى أن الفتيان لا يحسنون التعبير عن رغباتهم، فقد يحب الشيء بدافع وهم أو نصيحة من صديق أو قريب، وليس من خلال انسجامه معه أو معرفته بميزاته، ولهذا فإن للأبوين دوراً مهماً في بلورة رغبات الأبناء وترشيد اختياراتهم من خلال الحوار والمناقشة الهادئة، وبعد بذل كل الجهد، فإنه لا ينبغي أن يُكره أحد على عمل لا

يحبه، ولا يرتاح إليه، وأنا أعرف بعض الشباب الذين أجبرهم أهلهم على دراسة بعض التخصصات التي لا يحبونها لاعتبارات مختلفة، وكانت النتيجة هي أن أولئك الشباب - أو أكثرهم - لم يبدعوا في تخصصاتهم، بالإضافة إلى أن عطائهم يكاد يظل عند الحد الأدنى . ولهذا فإن مراعاة رغبات الأبناء، من الأمور التي يصعب تجاوزها،

الأمر الثاني الأساسي في النجاح هو الإمكانية والقدرة، ولا شك أن قدرات الأبناء متفاوتة، كما أن متطلبات التخصصات العلمية من القدرات أيضاً متباينة . الآن هناك اختبارات لقياس القدرات يمكن للآباء أن يجروها لأبنائهم في مراكز متخصصة، ومهما قيل عن تلك الاختبارات والمقاييس من أنها غير دقيقة، وتخلط في القياس بين الوهبي والمكتسب إلا أنها تظل مفيدة، وتعطي مؤشرات جيدة . وللمدارس دور مهم في اكتشاف المواهب، وإن كانت - مع الأسف - لا تقوم بهذا الدور اليوم بسبب الزحام وبسبب عدم الاهتمام . ومن خير الوسائل لاكتشاف القدرات التجربة الشخصية، فممارسة الأنشطة المختلفة تساعد الإنسان على بلورة ميوله، ومعرفة قدراته . وينبغي أن تهتم الأنشطة غير المنهجية في المدارس بإبراز الكفاءات والمهارات الموجودة لدى الطلاب . وقد كان المؤدبون الذين يقومون بتربية أبناء الصفوة وتثقيفهم، يتولون هذه المهمة، لكن هذا قد اضمحل اليوم، حيث لا وقت لدى المعلمين لأي شيء من هذا القبيل ! أنا أتمنى أن يكون للجماعات الإسلامية والتي تحتضن أعداداً كبيرة من الشباب دور في كشف المواهب وصقلها في مختلف المجالات، ولا سيما المواهب الإدارية والخطابية والقيادية .

العامل الثالث والمؤثر في النجاح هو (الفرصة) فقد يكون هناك شخصان يملكان موهبة واحدة وخبرة واحدة، لكن أحدهما يعيش في قرية صغيرة، والآخر في مدينة كبرى، فتجد أن الذي في المدينة يجد فرصاً أفضل بكثير من الفرص التي يجدها الذي يعيش في القرية ،ومن خلال تلك الفرص يزداد تفوقاً، ويكتسب خبرات أكثر، ويصبح له وضع مالي واعتباري أفضل . وهنا لابد من أن أذكر بالأسى عشرات الملايين من أطفال المسلمين الذين لديهم ذكاء عالٍ ونفوس متطلعة إلى العلم لكنهم يحيون في أسر أمية أو فقيرة جداً وفي قرى وهجر ليس فيها مدارس جيدة أو شبه جيدة، وكثير منهم يخرجهم آباؤهم من المدرسة قبل الانتهاء من المرحلة الابتدائية، لينخرطوا في دورة الحياة البائسة في مناطقهم !! .

وقد كان الآباء النابغون يهاجرون بأبنائهم من القرى والأرياف إلى المدن حيث المحاضن العلمية وذلك بحثاً عن فرصة لتعليمهم تعليماً أفضل من التعليم الذي تلقاه الآباء والأجداد، وقد أثمرت تلك الهجرات نبوغ عدد كبير من العلماء الأجلاء الذين نفع الله بهم الناس . إذن لا بد أن نفكر ويفكر أبناؤنا أيضاً في كيفية الحصول على فرص جيده للتعلم والتخصص والعمل، لكن عليّ إلى جانب هذا أن أقول : إن إصرار الإنسان حين يصل إلى درجة العناد، و إن إرادته حين تصبح حديدية فإن المرء حينئذ لا يعثر على الفرصة، فحسب إنما يصنع الفرصة ! الإمكانات المستترة هائلة، وبالعزيمة الماضية نستطيع كشفها والاستفادة منها . هناك مدرسون وموظفون فصلوا من أعمالهم لأسباب مختلفة، فلم يبحثوا عن وظائف جديدة، وإنما أقاموا مدارس ومؤسسات، صاروا أصحابها ومديريها، واشتغل الناس عندهم موظفين ومدرسين !

ط - كم أتمنى أن نعمل على نشر الثقافة التي يدرك أبناؤنا من خلالها الفروق بين الرجال الناجحين والرجال المخفقين . أعتقد أن المدارس هي المسؤول الأول، والإعلام هو المسؤول الثاني عن هذه المسألة . أما الأسر فإن كثيراً منها، لا يعدّ مؤهلاً للقيام بهذه المهمة . يجب أن يعرف الأطفال صفات الناجحين وصفات المخفقين، كما يجب أن يعرفوا بوضوح العادات والأخلاق والسلوكات التي تفضي بالمرء إلى التقدم والتفوق، وتلك التي تدفع به نحو الخلف . وأتمنى مرة أخرى أن يتم تضمين هذه الثقافة مقرراً من المقررات الدراسية مثل مقرر الثقافة الإسلامية . ولا ينبغي أن نكتفي بالمبادرات الفردية التي يقوم بها هذا المعلم أو ذاك . والآن هذا جدول نوضح فيه أهم معالم ثقافة النجاح وثقافة الإخفاق على نحو مقارن :

الرياض ١٤١٠

الناجحون المخفقون

١ - يعرف الناجحون ماذا يريدون، ويتحدثون عنه .أهداف المخفقين غامضة، وأكثر حديثهم يتمحور حول الأشياء التي لا تعجبهم يعتمدون التحسينات الصغيرة في حياتهم، ويراكمون الإنجازات يتطلعون إلى الأشياء الكبيرة، ويعجزون عن فعل الأشياء الصغيرة يحبون الحركة وينشطون في تحقيق مراداتهم يغلب عليهم الكسل، ويكثرن الجلوس أمام التلفازيعرفون أولوياتهم، ويلتزمون بها عند العمل يخبطون خبط عشواء، ولا يميزون في كثير من الأحيان بين المهم والأهم يظن الناجحون بأنفسهم خيراً، ويعتقدون أن لديهم إمكانات كبيرة لم تكتشف بعد يميلون إلى التشاؤم، ويعتقدون أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان .

ينشطون كثيراً في دوائر تأثيرهم، ولهذا فإن لديهم دائماً إنجازات معظم اهتماماتهم خارج دوائر تأثيرهم، ولهذا فإنهم مثقلون بالهموم ، وإنتاجيتهم ضعيفة .

حين ينافس الناجحون غيرهم، فإنهم ينافسون في إطار مبادئهم وقيمهم .لا يميل المخفقون إلى المنافسة، وإذا نافسوا كانت منافستهم غير شريفة يحبون أداء الأعمال في أوقاتها، وإذا فاتهم واجب عوضوه في وقت آخر المماطلة أصل في حياتهم، وما فات لديهم من الواجبات مات.

يحفلون بالنتائج، ويركزون على المضمون أعمالهم تميل إلى الرتابة، ويحبون الشكليات، وتستهلك طاقتهم الإجراءات .

يفوضون بعض أعمالهم إلى موظفيهم حرصاً على أوقاتهم يحبون المركزية والتحكم، ويستهلكون أوقاتهم في أمور غير مهمة .

يحاولون تحسين بيئات أعمالهم من أجل تحسين الإنتاجية يصبرون على سوء الظروف إلى ما لا نهاية، ويتكيفون معها على نحو سلبي يركزون على الأهداف بعيدة المدى ينشغلون بالصغائر، ويغرقون في متطلبات الحياة اليومية .

يقرؤون كتاباً مفيداً كل شهر على الأقل بينهم وبين الكتاب نوع من العداء ،ومعلوماتهم متقادمة.

يردون على المكالمات الهاتفية في يوم ورودها . لايهتمون بمن يتصل بهم ، ولا يشعرون نحوه بأي التزام أخلاقي .

يعتقدون بقوة الارتباط بين المقدمات والنتائج، ويعملون وفق ذلك يعوّلون كثيراً على المفاجآت المذهلة، وعلى ضربة الحظ .

يعتقدون أن النجاح الحقيقي هو الذي يقربهم من الله - تعالى - نجاحاتهم قليلة، وحين يحققون نجاحاً لا يبالون بمدى شرعيته .

حين يخطئون يتحملون مسؤولية أخطائهم . يدّعون الكمال، ولا يملكون الشجاعة للاعتراف بالأخطاء .

يعتقدون أن النجاح في مستوياته العليا، لا يتم من غير التعاون مع الآخرين تغلب عليهم الأنانية والفردية المريضة .

يسيطرون على عواطفهم وانفعالاتهم أحكامهم العقلية غير متزنة وعواطفهم غير مستقرة يشعرون أن التفوق الحقيقي هو تفوق المرء على ذاته يسعون إلى مقارنة أنفسهم بمن هم أقل منهم شأناً، حتى يشعروا بالرضا ماهرون في نقد أنفسهم ومراجعة أمورهم أضواء النقد لديهم دائماً موجهة نحو الخارج يستفيدون من أوقاتهم على نحو جيد .
يحاولون التخلص من الوقت بسبب عطالتهم وفراغ عقولهم ونفوسهم يتعاملون مع الإخفاق على أنه شيء يقربهم من النجاح، ويزيد في خبراتهم يعدون كل خطأ قاتلاً ويستسلمون للنتائج السيئة يتعاملون مع الفوضى والكسل على أنهما عدوان كبيران للنجاح الكسل والفوضى صديقان حميمان، والجدية مكلفة ومتعبة .

الناجحون المخفقون يعتقدون أن المرء إذا لم يساعد نفسه لم يساعده أحد . يعوّلون كثيراً على مساعدة غيرهم، ويعتبون بقوة على من يقصر

معهم . يوازنون بين الجرأة الأدبية وبين احترام مشاعر الآخرين كثير منهم لا يملكون الجرأة، وإذا نقدوا غيرهم لم يراعوا مشاعرهم .

هذه بعض صفات الناجحين والمخفقين، ولو شئت لذكرت ضعف ما ذكرته أو ضعفيه، لكن من المهم أن نشير إلى أن المرء حتى يكون ناجحاً فقد لا يحتاج إلى أكثر من نصف ما ذكرته، كما أن المرء حتى يكون مخفقاً في حياته لا يحتاج إلى كل الأشياء السيئة، فقد يخفق بسبب اثنين أو ثلاثة من الأمور التي ذكرناها . وعلى كل حال فالنجاح والإخفاق شيئان نسبيان، بمعنى أنه ليس هناك إنسان ناجح في كل شؤونه، كما أنه ليس هناك إنسان مخفق في كل أحواله وأعماله، وإنما توسعت في ذكر صفات هؤلاء وأولئك من أجل بيان دور الأشياء التي أشرت إليها في النجاح والإخفاق .

٤ - تربية لصالح المجتمع :

لم نكن في يوم من الأيام أحوج إلى (التربية الاجتماعية) منا في هذه الأيام، فنحن فعلاً قد دخلنا في عصر جديد، حيث يتم الآن تفكيك العلاقات القديمة القائمة على احترام الكبير ومراعاة الأعراف ومواصلة الأقرباء، وبناء علاقات جديدة ينكمش فيها كل ذلك لحساب احترام الكفاءة، وتقدير النفوذ والثراء ولحساب بناء علاقات الصداقة العميقة والضيقة. وهذه الوضعية جاءت بها تحولات كونية عاتية، وتلطيف آثارها يحتاج إلى اهتمام كبير من المربين والإعلاميين والدعاة، وبذل جهود استثنائية ذات طابع مؤسسي، وإلا فستنشأ أجيال مغيبة إلى حد

كبير عن الأخلاق والآداب الإسلامية على المستوى الاجتماعي . وإنما أقول هذا الكلام لأن التماسك الاجتماعي الذي لدينا يشكل ميزة لأمة الإسلام على المستوى العالمي، كما يشكل مصدراً كبيراً لدعم الفرد المسلم ومؤازرته في ظروف قاسية جداً، كما أن جزءاً كبيراً من القيم التي نحملها نتشربها من مجتمعاتنا، ولهذا فإن الحرص على سلامة بنائها وحفظها من التفكك، يجب أن يكون من الهمّ العام لكل واحد منا . وأنا هنا - كما هو الشأن في كل هذا الكتاب - لا أستطيع أن أقول سوى شيء يسير مما ينبغي أن يقال، لكنه يعبر عن اهتماماتي بشكل صادق ودقيق، ومن الله الحول والطول . وهذه بعض الملاحظات المهمة في هذا الشأن :

أ - البناء الاجتماعي الصحيح لا يقوم إلا على أساس العقيدة والعلاقة بالله - تعالى - ونحن نريد أن نتعاهد على أن نجعل كل أشكال التواصل والتراحم الاجتماعي جزءاً من تقربنا إلى الله - تعالى - وأن ننظر إلى أن العلاقات الاجتماعية تشكل مصدراً عظيماً لنيل رضوان الله - تعالى - وبركاته وخيراته ومعوناته، ولهذا فإن الواحد منا حين يحسن إلى فقير، أو يعود مريضاً، أو يصل رحماً . فإنه في الحقيقة ينفع نفسه أولاً ،ويتأهل لنيل الكثير من بر الله - سبحانه - وأود من أجل ترسيخ هذه الفكرة الجوهرية أن أسوق على عجل النصوص الكريمة الآتية :

- قال الله - تعالى - :﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦١) . وقال - جل وعز -﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

(البقرة:٢٧٣) " . وقال :﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ (سبأ:٣٩) .وقال – عليه الصلاة والسلام – : " رغم أنفٌ، ثم رغم أنفٌ، ثم رغم أنفُ من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما، فلم يدخل الجنة " (١) . وقال – صلى الله عليه وسلم – : " من أحب أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله، فليصل رحمه "(٢). وقال : " كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة " . وأشار الراوي وهو مالك بن أنس بالسبابة والوسطى (٣). وعنه – صلى الله عليه وسلم – (أن رجلاً زار أخاً له في الله في قرية أخرى، فأرصد الله – تعالى – على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه، قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربُّها عليه ؟ قال : لا غير أنني أحببته في الله – تعالى – قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه "(٤).

إذن ينبغي أن يكون توجيه الأطفال في مسائل السلوك الاجتماعي مبنياً على فكرة التقرب إلى الله – تعالى – وليس على مفهوم الأعراف والعادات والتقاليد ومفهوم العيب، وما يمكن أن يقوله الناس . ومما يؤلمني ما ألاحظه اليوم من سحب مسألة العبودية والالتزام الشرعي من كثير من العادات الخيرة السائدة في المجتمع، وصرنا نسمع في وسائل الإعلام وفي كلام الناس العاديين التأكيد على أنهم يتواصلون ويتراحمون

---

(١) رواه مسلم . ورغم الأنف التصاقه بالرغام، كناية عن الذل

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

لأن ذلك جزء من عاداتهم أو موروثهم الشعبي . إن العادات والتقاليد لا تتسم بالثبات، وهي كلمات باردة جداً على المستوى الشعوري، وتحمل مفهوم الخضوع والتبعية على المستوى الفكري .أما البذل على أساس العقيدة والتقرب إلى الله - تعالى - فإنه يدل على الاختيار والإرادة والمبادرة، وشتان ما بينهما ! .

ب - انتهى علماء أصول الفقه لدينا إلى أن مقاصد الشريعة الكلية تنحصر في خمسة مقاصد، وهي حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ العرض وحفظ المال، ولا يهمني من هذا هنا سوى الإشارة إلى أن في إمكاننا أن نتخذ من هذه المقاصد محاور للتربية الاجتماعية، ويدعّم هذه الفكرة قوله - صلى الله عليه وسلم - : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "[1] . نحن نود أن نقول لأبنائنا وبناتنا في البيوت والمدارس وفي وسائل الإعلام وفي المحاضن التربوية المختلفة :

إن المسلم كما أنه مطالب شرعاً بالمحافظة على دينه وعلى تدينه، فإنه مطالب بمساعدة المسلمين على التدين والالتزام، وذلك من خلال المناصحة والمساعدة الملموسة، ومن خلال عدم تعريضهم للفتن وعدم تقديم التسهيلات التي توقعهم في المنكرات والموبقات . وكما أن المسلم مطالب بالمحافظة على نفسه وعقله وعرضه وماله، فإنه كذلك مطالب بالمحافظة على نفوس إخوانه المسلمين وعقولهم وأعراضهم وأموالهم . إنه نوع عظيم من التضامن والتكافل الشعوري والخلقي والعملي . وهذه

(١) رواه مسلم وغيره .

في الحقيقة هي الوحدة العضوية المتينة التي أشار إليها - صلى الله عليه وسلم - حين قال : " مَثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "(١) .

هذا المعنى بات يذبل اليوم من خلال ما تنشره العولمة من معاني الأثرة والأنانية والانكفاء على الذات، ومن خلال عمليات التفكيك للبنى الاجتماعية المختلفة، وواجبنا استعادته وإنعاشه بكل وسيلة ممكنة .

ج - إن الناس حين يجتمعون يتبادلون الكثير من المنافع والخبرات، لكنهم في الوقت نفسه يتوجسون من بعضهم خيفة، ويظنون الظنون، ولهذا فنحن في الحقيقة نبطن التوتر، ونخاف العدوان، ونحذر الصدام.

والتجربة العالمية تقول : إن على الناس أن يفعلوا الكثير الكثير على صعيد التربية حتى لا ينطلق الوحش الكاسر والكامن تحت جلودهم، والمجازر التي تشهدها مناطق عديدة من العالم تدل على ذلك أوضح دلالة . من هنا فإن لدينا الكثير من النصوص والتوجيهات التي تحث المربين بطريقة غير مباشرة على بناء خطوط روحية وخلقية عميقة في شخصيات الأطفال حتى نتمكن في المستقبل من حماية المجتمع من بروز النزعات العدوانية والعنصرية والتدميرية لدى أبنائه، وأنا أريد هنا ذكر

(١) رواه مسلم وغيره .

بعض تلك النصوص كما أود أن أوضح الأسس التي اعتمدها الإسلام في هذا الشأن، والتي ينبغي على المربين اعتمادها، ومن تلك النصوص والأسس الآتي :

١ - النفس البشرية محترمة لذاتها، والتعاطف مع ألام الناس مهما كانت دياناتهم [١] من جملة النبل الذي ينبغي أن تنطوي عليه نفس كل مسلم يقول الله - تعالى - : ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾ (المائدة : ٣٢)". وقال - صلى الله عليه وسلم - : لننظر إلى هذا التسامح والتساهل والتكريم للنفس البشرية، ولنتعلم منه، ولنحاول تربية الأبناء عليه .

٢ - لا ينبغي للرحمة والتعاطف أن يقتصرا على الإنسان، بل ينبغي أن يمتدا إلى الحيوان أيضاً، ولنذكر في هذا الأمر نصين مهمين . الأول هو قوله - صلى الله عله وسلم - " بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر، فملأ خفّه، ثم أمسك بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له . قالوا : يا رسول الله : وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر " [٢]. والثاني قوله : عُذِّبت امرأة في

---

(١) للمحاربين أحكام خاصة موجودة في كتب الفقه . ومن المعروف انه ليس كل كافر محارباً، فهناك الذمي والمستأمن .

هرة ربطتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها، ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض "(١).

إنه لشيء كبير جداً أن تغفر لرجل خطاياه (في رواية : بغي من بغايا بني إسرائيل عوضاً عن رجل) بسبب شفقته على كلب، وأن تدخل امرأة النار بسبب جنايتها على هرة ! إن تربية الطفل على الرفق بالحيوان والإحسان إليه تنمي النزعة الإنسانية لديه لتمتد رأفته، وتشمل الناس من حوله فيما بعد . وإن الذين يضربون الخدم، ويأكلون حقوق عمالهم وموظفيهم على مرأى من أبنائهم، يؤهلونهم ليرثوا عنهم الوحشية وقسوة القلوب والبوء بغضب الله، تعالى .

٣ - من أسس التربية الاجتماعية الاهتمام بالبيئة على مستوى تنميتها وعلى مستوى المحافظة على نظافتها، ونحن نعرف كيف جعل نبينا - صلى الله عليه وسلم - إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان، كما جعلها صدقة وقربة يتقرب بها العبد إلى ربه . ونحن في هذا السياق محتاجون حاجة ماسّة إلى المنظمات والهيئات الأهلية التي تدرب الشباب والفتيان على خدمة البيئة وإغنائها بالمرافق العامة التي يستفيد منها عموم الناس، وبلاد المسلمين من أفقر بلاد العالم في هذا المجال !!.

٤ - التساهل مع الناس، والعفو عنهم، ومسامحتهم من المحاور الأساسية في التربية الاجتماعية لأن الناس كثيراً ما يقعون في الأخطاء

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

نتيجة الجهل أو سوء التقدير أو الغضب الشديد أو سوء الظروف، وفي كل الأحوال فإن المسلم مطالب بالصفح ؛ والأجر عند الله عظيم، ونحن نتمنى أن نربي أبنائنا على هذه الفضائل من خلال سلوكنا الشخصي وليس من خلال المواعظ، وهذا هو التحدي، فهل نقبل التحدي ؟ ومن النصوص الكريمة في هذه المعاني قول الله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)" .

وقال - صلى الله عليه وسلم - :" كان رجل يداين الناس، وكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً،فتجاوز عنه،لعل الله أن يتجاوز عنا.قال: فلقي الله فتجاوز عنه " (١) .

٥ - إلى جانب هذه الآداب الأساسية، هناك آداب أخرى تتصل باللطف والذوق والتأنق في السلوك، وهي كثيرة جداً، سأذكر بعضها من أجل التذكير بها آملاً وراجياً أن ننبه الأطفال عليها كلما سنحت الفرصة ووجدت المناسبة لذلك :

• تقبيل يد الأبوين وطلب الدعاء منهما عند الاستيقاظ من النوم، وعند القدوم من المدرسة .

• شكر الأبوين - ولا سيما الأم - على الجهد الذي يبذلانه في تربيته، وتعويد الطفل إظهار السرور والابتهاج عند تسلم هدية من أي كان .

---

(١) رواه البخاري.

• احترام إخوته الكبار والعطف على إخوته الصغار، وتحمل المسؤولية تجاه سلامتهم .

• الاتصال على العمات والخالات والأعمام والأخوال والسلام عليهم، والسؤال عنهم .

• استقبال الضيف عند الباب والترحيب به، وتوديعه خارج المنزل وتشييعه مسافة عند الباب .

• إذا عطس أحد الأبوين أو أحد الضيوف شمّته، وناوله منديلاً .

• إذا رد الطفل على الهاتف، لم يقل للمتصل : من أنت : وإنما من حضرتك، وهل تسمح أن تعطيني اسمك، وآسف لأن أبي نائم . وما شابه ذلك من العبارات اللطيفة .

• وضع حصالة نقود في المنزل لكل طفل، يضع فيها شيئاً من مصروفه، وكلما امتلأت يرسل المال إلى إحدى الجهات الخيرية .

• يعلّم الطفل كيف يسيطر على غضبه، وكيف يعبر عن غضبه .

• علاقة الطفل مع زملائه في المدرسة، يجب أن تقوم على التعاون وليس على المنافسة .

• احترام المعلم والاستفادة من نصائحه، والحرص على هدوء الفصل الدراسي .

• تعليم الطفل أن الناس متشابهون إلى حد بعيد، لهذا فإن ما يسعده يسعد الآخرين، وما يؤذيه يؤذيهم .

- إذا أراد أحد الأبناء أن يلقى الاحترام من الآخرين، فعليه أن يحترم نفسه، ويعامل الآخرين باحترام .
- تعليم الطفل الثناء على الأمور الحسنة، والتقليل قدر الإمكان من الشكوى والتبرم والكلام السلبي .
- يعوَّد الطفل عدم نقل الكلام الذي سمعه في المجالس الخاصة، كما يعود من تقليل ذكر أسماء الذين ينقل كلامهم .
- إلقاء السلام على من يعرف، ومن لا يعرف، وتعويده رد السلام أيضاً .
- الاستماع فضيلة، وتعليم الطفل أن يسمع ضعف ما يتكلم .
- المحافظة على أسرار الأسرة وخصوصياتها، وعدم تحديث الناس بها .
- الجرأة الأدبية فضيلة، ولكن لابد من مراعاة مشاعر الآخرين .
- تعويد الطفل النظر في وجه من يحدثه، وعدم التشاغل عنه .
- خفض الصوت والتكلم بهدوء ولباقة .
- الناس مختلفون، ويجب التعامل معهم على أنهم كذلك .
- الاعتراف بالخطأ والاعتذار ممن أخطأ الطفل معه .
- مساعدة الوالدة في بعض شؤون المنزل .
- التعامل مع أبناء الجيران بلطف . وعدم السعي إلى إغاظتهم

د. عبد الكريم بكار

إن علينا حتى نجعل الطفل يتشرب هذه الآداب، ويتمثلها في سلوكه – علينا أن نصبر ونستمر في المحاولة، فتغيير السلوك يحتاج دائماً إلى وقت . وقد قالوا : إن التربية مثل الحرب تحتاج إلى الرجل المكِّيث . أنا أعرف أن هناك الكثير من النقاط التي لم أوضح وجهة نظري فيها، كما أعرف أن كثيراً منها لم أعالجه على نحو وافٍ. وأنا لم أستطع التوسع في الموضوعات التي طرقتها لأني التزمت منذ مدة بأن لا تكون كتبي كبيرة، حتى لا يرتفع ثمنها على القارئ، والأكثر من ذلك حتى لا يمل من قراءتها، ولهذا فالمساحة أمامي محدودة، والله الموفق لما هو خير وأبقى .

التعليم: كيف ننهض به ؟

بين التربية والتعليم تداخل كبير، فالمربي لا يستطيع القيام بدوره على النحو الصحيح إذا لم يوصل إلى من يربيه بعض المفاهيم والأفكار والرموز، فهو معلم . والمعلم الجيد يمارس التربية أثناء التعليم : إنه يزكي وينمي القدرات العقلية والنفسية لدى التلميذ، ويطلق طاقته الروحية، ولذلك فهو مربٍ بامتياز . لكن فصلنا الحديث عن التعليم عن الحديث عن التربية لأغراض فنية وتسهيلاً للمعالجة .

أذكر في هذا المقام ما قاله أحد الحكماء على وجه المبالغة والتحذير : ثلاث مهمات أو ثلاثة أدوار على العاقل أن يفكر ملياً قبل أن يقدم على أي منها : دور الأب ودور المعلم ودور رجل الدولة ! . وهو يريد منها لفت الأنظار إلى الصعاب الجمة التي يواجهها المربون والمعلمون والمسؤولون الكبار وهذه الملاحظة في مكانها. وقد شرحنا مهمة (

المربي)، والآن نحاول شرح مهمة (المعلم) وإن كنت عاقداً العزم على أن أعرض عن كثير من التفصيلات والتركيز على ما يمكن القيام به من أجل تحسين مستوى التعليم . وأنا حين أتحدث في هذا الموضوع أنطلق من خبرتي الأساسية في الحياة حيث مارست التدريس في المتوسط والثانوي مدة يسيرة، في حدود ثلاث سنوات لكنني قضيت في التدريس الجامعي سبعة وعشرين عاماً بالتمام والكمال . وأقول بصدق إني مع هذه المدة الطويلة لا زلت أشعر بوجود خفايا ومعميّات كثيرة في هذه المهنة العظيمة ! والحقيقة أن هذه المهنة مهنة الأنبياء - عليهم الصلاة و السلام - مهنة معقدة وخطرة على اليقظة الروحية والعقلية للإنسان، هي معقدة لأنها تجمع بين (العلم) و (الفن) فلا يكفي للتعليم الجيد أن يكون المعلم ملماً بالمادة التي يدرسها على نحو جيد، بل لابد أن يكون عارفاً بنفوس الطلاب الذين يدرسهم وبمدى استعدادهم للتعلم، وأن يكون كذلك عارفاً بالسياق الاجتماعي الذي يتم فيه التعليم، وأن يكون قبل هذا وذاك قادراً على توصيل المعلومات التي لديه على نحو جيد . وعملية التعلم معقدة أيضاً لأن المعلم يقوم بدور المرشد والوالد والقائد والمربي والقاضي وأحياناً بدور شرطي . والمعلم مع كل هذا يحتاج أن يكون دقيقاً في موازناته، وكثيراً ما كنت أجد نفسي أثناء المحاضرة أشبه بالذي يسير على حبل مشدود، فهو مهدد بالسقوط ذات اليمين وذات الشمال . ومهنة التعليم خطرة لأن كثيراً من المعلمين يشعرون بعد مدة من ممارسة المهنة وكأن طاقاتهم الروحية قد استنفدت، وتحولوا إلى أشخاص لا يحسنون سوى الشكوى والتنصل من المسؤولية والعتب على الآخرين.

وكل هذا بسبب سوء البيئة المدرسية وبسبب أسلوب التدريس الرتيب والممل، وإلا فالتعليم عملية ممتعة ومجزية حين تتم بالطرق الصحيحة .

لا أريد من هذا الكلام التدليل على مشقة التدريس، فهذه لا تحتاج إلى دليل، ولا أريد منه أن يلتمس الناس الأعذار للمعلمين إذا لم ينجحوا في مهماتهم، ولكن أحببت أن أوضح أن النهوض بالتعليم لا يكون بالكلام ولا بالأمنيات، وإنما بالعمل على الارتقاء بكل جانب من جوانب المهنة على حدة ومن خلال رؤية نافذة . وهذه بعض الرؤى في هذا الشأن أوجزها في النقاط الآتية :

١ - البيئة التعليمية :

إذا تأملنا في واقع الناس فإننا سنجد نحواً من (٩٠٪) منهم عبارة عن أشخاص عاديين، وثمة نسبة قليلة متفوقة في خلقها ومعرفتها، ونسبة أقل متفوقة جداً . الأشخاص المتفوقون يتصفون بصفات مهمة، منها أن خضوعهم لبيئاتهم يعد قليلاً ومحدوداً نسبياً . أما الأشخاص العاديون فإنهم يتشربون على نحو عميق المعطيات البيئية المختلفة، حيث إنها تصبح المكوِّن الأساسي لعقول الطلاب ونفوسهم ومهاراتهم . من هنا ندرك أهمية البيئة التعليمية في تحديد مستوى المخرجات التعليمية ونوعيتها . وحين نتحدث عن البيئة التعليمية الجيدة فإن علينا ألا ننسى أن الناس يشكون من بعض الأمور باستمرار، وذلك لأن طموحاتهم تتجاوز الإمكانات المتوفرة، وهم يعتقدون أنه يمكن دائماً عمل ما هو أفضل . وعلينا ألا ننسى أنه ليس هناك بيئة كاملة وخالية من القصور،

د. عبد الكريم بكار

كما أن من الصعب الإحاطة دائماً بالأسرار والعوامل التي تجعل جامعة أفضل من جامعة ومدرسة أفضل من مدرسة . في إطار هذه المفاهيم يمكن أن نقول : إن البيئة التعليمية الجيدة والمنتجة تتسم بالآتي :

أ – إدراك جيد من الإدارة والأساتذة والموظفين لأدوارهم في المؤسسة التعليمية، وإدراك جيد للمسؤوليات الملقاة على كواهلهم . إن إدراكهم لذلك هو من العمق والوضوح إلى درجة أنه يشكل حافزاً قوياً لهم ليس على العطاء، وإنما على التفاني والتضحية والدأب المستمر . وأعتقد أن استهداف تحقيق (الشعور بالرضا) لدى جميع منسوبي المؤسسة التعليمية يصلح هادياً جيداً على هذا الصعيد : مدير المدرسة أو الجامعة يحرص الحرص كله على أن يشعر المدرسون والموظفون لديه على أنهم راضون – في إطار الإمكانات المتاحة – عن المكان الذي يعملون فيه ويشعرون بالمعاملة العادلة وبالتمتع بالخدمة التي يستحقونها . الإداريون والمدرسون أيضاً يحرصون من جهتهم على جعل الطلاب يشعرون بقدر حسن من الرضا عن الخدمات التعليمية والفنية والإدارية التي تقدم إليهم . والطلاب من جهتهم أيضاً يعملون من خلال حسن تعاملهم مع أساتذتهم ... ومن خلال أداء واجباتهم واجتهادهم على جعل أساتذتهم يشعرون بأن لديهم طلاباً نجباء يستحقون منهم العناء في تحضير المواد وتجويد الأداء . الشعور بالرضا حين يسود في مكان ما ينعش الآمال، ويطلق الطاقات، ويدعّم روح التعاون . هنا نواجه مشكلة بنيوية موجودة في معظم المؤسسات التعليمية في العالم كله، وتلك المشكلة هي ارتباك المؤسسات التعليمية في تطوير نفسها وقبل ذلك في وعي ميزاتها وسلبياتها، وهذه

مفارقة مزعجة، فالأمم تبني الجامعات من أجل مساعدتها على تطوير المجتمع والارتقاء بالأوضاع العامة، لكن الحاصل هو أن تلك الجامعات بعد مدة تبدو وكأنها عاجزة عن التخلص من مشكلاتها المتراكمة . في بعض الجامعات تجد أساتذة القسم الواحد يتجادلون سنوات طويلة حول تقرير كتاب في موضع كتاب آخر ! وفي بعض الجامعات يشكو الأساتذة من عقم أساليب التدريس التي يتبعونها عشرين سنة، ولا يحدث أي تغيير يذكر ! أنا أود أن تنفتح المؤسسات التعليمية على ذاتها من خلال النقاش المستفيض حول كل شيء: أداء الإداريين والمدرسين والمناهج والمعامل والبحث العلمي والعلاقات بين منسوبي المؤسسات ..... وأود لذلك النقاش أن يكون حراً عفوياً بعيداً عن الرسميات، وأن نركز في حواراتنا على الأمور التي نريدها وعلى البدائل، وليس على الأمور التي لا تعجبنا كما نفعل اليوم في جلساتنا ومسامراتنا . شيء آخر مهم هو القيام باستطلاع منظم ودوري واحيادي لآراء الطلاب في الخدمات المختلفة التي تقدم إليهم . يقولون : إذا أردت أن تعرف جودة مطعم، فلا تسأل صاحبه ولا العاملين فيه ولكن اسأل الزبائن الذين يتذوقون طعامه . أنا أعرف أنه ليس من تقاليدنا التعليمية أن يبدي الطالب رأيه في شيوخه وأساتذته، وأعلم أن كثيراً منا ينفرون من هذه الفكرة نفوراً تاماً، كما أعرف أن كثيراً من الطلاب قد لا يعبرون عن قناعاتهم بموضوعية، أعرف كل هذا لكنني أعرف - معرفة يقينية - أن بعض المدرسين يأتون إلى الدرس أو المحاضرة دون أي استعداد، ومن يمضي الفصل الدراسي بأكمله دون أن يقول إلا القليل فيما يتعلق بالمنهج الدراسي، كما أعرف

أن كثيراً من المواد في بعض الكليات النظرية تم اختزاله ليصبح في مذكرة في حدود عشرين صفحة، كما أعرف أن كثيرا من المعلمين يشتمون الطلاب، ويشبهونهم بالدواب، ومن ومن ...!! كيف نعالج كل هذا إذا لم يكن للطلاب رأي مؤثر في استمرار المدرس في عمله، وفي ترقيته وزيادة مرتبه؟ جامعات عالمية كبرى أخذت بهذا النظام، وآتى ثماره على الرغم من وجود بعض السلبيات . دعونا نجرب على نطاق واسع، ونعالج سلبيات التجربة .

ب – حساسية أخلاقية عالية حول المنهج المستتر الذي تقدمه المؤسسة التعليمية، ذلك أن الجامعات والمدارس تقدم نوعين من المناهج : نوعاً ظاهراً مرئياً ، وهو هذه المواد الدراسية التي يقدمها الأساتذة في الفصول الدراسية، ونوعاً مستبطناً مستتراً يتشربه الطلاب بوعي وبغير وعي من خلال المعايشة لكوادر المؤسسة التي يتعلمون فيها. هذا المنهج يتكوّن من عدد كبير من العناصر المختلفة، منها :

- طبيعة العلاقة القائمة بين الأساتذة والطلاب .
- طبيعة العلاقة القائمة بين إدارة المؤسسة والطلاب .
- طبيعة العلاقة بين الأساتذة والإدارة، والعلاقة القائمة بين الأساتذة بعضهم مع بعض .
- الأبنية والتجهيزات المتوفرة ومدى جودتها، ومدى جودة الخدمات المقدمة للطلاب .
- السلوك الشخصي للإداريين والمدرسين ومدى انسجامه مع

القيم والمبادئ التي تتحدث عنها المناهج و المواد الدراسية .

• مدى انسجام أقوال الأساتذة وتصرفاتهم مع العقائد التي يحملونها .

إن الطلاب يتفاعلون مع هذه العناصر، وحين يجدون درجة حسنة من المصداقية والتلاؤم بين الأقوال والأفعال، فإن المنهج المستتر يتحول إلى داعم قوي للمنهج الظاهر، وتكون النتيجة تغير إيجابي في أخلاق الطلاب وسلوكاتهم، وتعزيز جيد للقيم الإسلامية التي تقدمها المساجد والأسر والإعلام الملتزم . كما أن الطلاب ينشأ لديهم حب متين وأكيد لأساتذتهم وولاء كبير للمؤسسة التي يتعلمون فيها . أما إذا لمس الطلاب وجود مفارقات كبيرة بين المناهج التي يدرسونها وبين الأوضاع السائدة في جامعاتهم ومدارسهم، فإن الوضع سيكون صعباً جداً : قسم من الطلاب سيرفضون ذلك الوضع، ويسحبون الثقة من كثير مما يقال داخل الحجر الدراسية، ومن كثير من المعلمين الذين يعلمونهم . وقسم آخر سوف يتأثر بالجو السائد، ويتماهى معه، وقد رأينا فعلاً طلاباً كثيرين، تراجعت سوياتهم الأخلاقية، وتراجع ما لديهم من دأب وجد واجتهاد بسبب المؤسسات التعليمية السيئة التي ينتسبون إليها . ومن المعروف - ولكل قاعدة شواذ - أنه حين تتعارض أقوال المربي مع اتجاهاته وسلوكاته فإن الصغار يتأثرون بالسلوكات والاتجاهات، ويتفاعلون معها، وليس مع الأقوال ؛ ومن هنا كانت العصمة للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث لا يرى أتباعهم سوى الانسجام والتوافق بين ما يقولونه وما يفعلونه . قسم ثالث من الطلاب يصاب بالحيرة والتشتت، ويصبح لديه

ما يشبه تشتت الجذور، وهو يرى نفسه غير قادر على تمييز الصواب من الخطأ فيما يطلع عليه، ويعايشه . هذا يعني أن على القائمين على المؤسسات التعليمية أن يدركوا شدة حساسية الدور الذي يقومون به. والتكاليف الكبيرة لذلك الدور، فهل نحن مدركون لذلك ؟

ج - لم يعد المطلوب من التعليم تثقيف العقول فحسب، أو إكساب الطالب قدراً كبيراً من المعلومات، وإنما أضيف إلى ذلك شيء جوهري: هو تهيئة الطلاب لخوض منافسة ضارية من أجل كسب الرزق والحصول على عمل ملائم في عصر كثير التكاليف، كثير الأعباء . هذا يعني أن كل بيئة تربوية لا يمكن أن تكون جيدة إذا لم تقدم مستوى عالياً من التعليم، حتى إذا ذهب خريجوها إلى سوق العمل وجدوا أنهم يملكون من المعرفة والمهارة والإتقان، ما يمنحهم ميزة على غيرهم من الأقران . وأنا لا أعرف في الحقيقة من أين أبدأ في مسألة جودة التعليم، ولا أعرف إلى أين أنتهي، لكن ما دمنا نتحدث هنا عن البيئة التعليمية الجيدة فالكلام بطبيعته سيكون محصوراً في أشياء محددة، من أهمها الآتي :

• إذا أرادت مؤسسة تعليمية أن تتفوق، فعليها أن تعتقد أن لدى المؤسسات التعليمية الأخرى أشياء كثيرة يمكن أن تتعلمها، ومن هنا فإني أدعوا إلى الانفتاح : لتحاول كل مؤسسة تعليمية أن تتواصل مع المؤسسات التعليمية الأخرى داخل البلاد وخارجها ولا سيما تلك التي يشار إليها بالبنان، لتحاول اكتشاف عناصر النجاح لديهم ثم الاقتباس منها . أعرف رجلاً ولي إدارة إحدى الجامعات، فما كان منه إلا أن أرسل رجلين من إدارته مدة شهر كامل، ليطوفا على الجامعات الكبرى في أوروبا وأمريكا

من أجل رؤية النظم السائدة وطرق تعاملهم مع المشكلات التعليمية . وهذا شيء جيد جداً .

• نحن نحتاج في كل قطر إسلامي إلى هيئة عامة متخصصة وحيادية، تكون مهمتها وضع معايير لتصنيف المؤسسات التعليمية المختلفة ، ثم تطبيق تلك المعايير على المؤسسات الموجودة، ويمكن أن تكون البداية بتصنيف الجامعات، ثم يصار إلى المدارس الثانوية وهكذا. وهذا أمر ليس بالصعب ما دام قد تم فعلاً تصنيف مؤسسات المقاولات والفنادق والنوادي الرياضية وغيرها . نريد أن يعرف الناس حين يسجلون أبناءهم هل يسجلونهم في جامعة من الدرجة الأولى أو الخامسة . ونريد للقائمين على المؤسسات التعليمية أن يعرفوا بالتحديد ما الذي عليهم أن يفعلوه حتى يرتقوا بمؤسستهم من مرتبة إلى أخرى . العالم سبقنا إلى هذا، وصنف جامعاته على نحو جيد وواضح . وعلينا ألا نتأخر أكثر من ذلك.

• كثير من المشكلات التعليمية سببه قلة ذات اليد، فهذا الطوفان من الأطفال والفتيان الباحثين عن مدارس وجامعات يدرسون فيها، لا يقابله نمو مكافئ في عدد المؤسسات التعليمية لا على مستوى الكم ولا على مستوى الكيف، والسبب هو عدم وجود المال . في بعض البلدان الإسلامية يتقاضى المدرسون رواتب لا تسد احتياجاتهم الأساسية، فيضطرون إلى إعطاء الدروس الخصوصية، وقد وصل الأمر في معظم الأحيان إلى درجة من السوء لا تصدق . في بلدان أخرى يتقاضى المدرسون رواتب جيدة، لكن الفصول الدراسية مزدحمة، ووسائل الإيضاح والمعامل والمختبرات

شبه مفقودة أو موجودة على نحو متواضع جداً . فما الحل ؟ قضية مثل هذه لا يقوم بها حل واحد، بل لا بد من مجموعة من الحلول، قد يكون منها فرض رسوم على الطلاب، وتشكيل جمعيات، مهمتها مساعدة الطلاب الفقراء على دفع تلك الرسوم . بعض الجامعات أوجدت شيئاً سمته (التعليم الموازي) وهو تعليم مدفوع الأجر من قبل الطلاب الذين لم يحصلوا على الدرجات الكافية لدخول التعليم المجاني . وهذه فكرة جيدة بشرط استخدام ما تأخذه الجامعات في تحسين مستواها . نحن أيضاً في حاجة إلى استرجاع (الوقف الإسلامي)في مجال التعليم بعد أن نبدع له صيغاً وأساليب جديدة . وأعتقد أن على الدول أن تشجع القطاع الخاص على الاستثمار في التعليم مع تقديم محفزات مغرية، لكن بشرط ممارسة رقابة دقيقة عليه حتى لا تتحول هذه المهنة العظيمة (التعليم) إلى مرتع للجشعين و إلى وسيلة ابتزاز للفقراء والمعدمين . أخيراً أريد أن أقول : إذا كنا عاجزين عن تطوير قطاع التعليم، فإن الأجيال الجديدة لا تستطيع تحمل عقدين أو ثلاثة عقود أخرى حتى تتحرك فينا الحمية، وتتوحد لدينا الكلمة على خطة للتطوير والتحسين، وحينئذ قد يكون الحل في أن نعقد ما يسمى بـ (التوأمة) بين جامعاتنا ومدارسنا من جهة وبين جامعات ومدارس ومعاهد عالمية من جهة أخرى . تظل لنا السيطرة على مضامين المناهج، ونوعية المواد التي تُدرَّس وعدد ساعاتها، ونستعين في أمور التنظيم والإدارة بالخبرات العالمية . هذا الاقتراح موحش بل مرفوض لدى بعض الناس الذين يخافون من كل شيء، لكنهم لا يشعرون بأي ضيق من التخبط والقصور والضعف الذي نعاني منه في مؤسساتنا التعليمية منذ قرون !!.

د. عبد الكريم بكار

• يا أيها الذين يعللون لضعف التعليم لدينا بقلة الإمكانات أقول لكم كلمة مختصرة : لنبدأ من الآن بحل المشكلات التي لا يحتاج الخلاص منها إلى أي مال، – وهي من غير مبالغة– تشكل ثلثي مشكلاتنا التعليمية، ولنعمل على توفير المال للثلث الباقي . عصرنا عصر (الإدارة) والإدارة الممتازة، تعرف كيف تدير الموارد الشحيحة، وكيف تنميها، فلنركز على تحسين مستوى المديرين والعمداء، فهم يملكون خيوطاً مهمة في تطوير التعليم .

٢ – ما الذي نعلّمه ؟

من الصعب جداً في كتاب كهذا أن نخوض في المناهج الدراسية، ونوضح ما الذي علينا أن نسقطه من المناهج الحالية، وما الذي علينا أن نضيفه، فهذا بحر لا ساحل له، لكن إذا كنا عمليين حقيقة فسوف نهتدي إلى ترتيب أولوياتنا المعرفية، وإلى تصنيف المعارف بحسب حاجة الحياة المعاصرة إليها، أو بحسب حاجة الناس إليها في العصر الحديث . لا يصح أبداً أن يُطلب من التلميذ في أي مرحلة أن يتعب، ويُمضي الساعات الطوال في فهم علم لا يعرف ما الذي يصنعه به، كما لا يعرف كيف تنتفع به الحياة والأحياء . أذكر أنني درست حين كنت طالباً أكثر من كتاب في (المنطق) وقد كانت مسائله تستعصي عليّ، فعمدت إلى حفظ أحد الكتب عن ظهر قلب، وقدمت امتحاناً، ونجحت، لكن كنت أشعر أن دراستي للمنطق لم تحسّن مستوى التفكير لدي، ولا عصمت ذهني من الوقوع في الخطأ . ودرست مادة (أصول الفقه) ودرسها ألوف غيري، ولم أشعر أنها ساعدتني على تقعيد المسائل الفقهية أو الترجيح

بينها ! ملايين الطلاب يدرسون اليوم قواعد العربية سنوات طويلة، وتجد قلة قليلة بين تلك الملايين استقامت ألسنتها، وخلا كلامها من اللحن ! سبب كل هذا أو كثير مثله أن الطلاب لا يعرفون لماذا يقرؤون العلم الفلاني، ولماذا يدرسون الموضوعات الفلانية (ما الذي نعلمه ؟) : قضية كبيرة أكتفي بتسليط بعض الأضواء عليها عبر المفردات الآتية :

أ ـ علينا أن نعترف أننا أخفقنا على نحو مخيف في تحبيب القراءة والكتاب إلى نفوس الطلاب ؛ فالمتوقع ممن درس ست عشرة سنة حتى تخرج من الجامعة، أن يكون قد ألف الكتاب وأنس بالقراءة، وأدرك أهمية المطالعة، لكن الواقع يقول : إن معظم خريجي الجامعة ليسوا كذلك والفئة التي يقرأ الواحد منها كتاباً في الشهر قد لا تصل إلى (١٠٪). لا تتحمل المدارس وحدها هذه المسؤولية، فالأسر تشاركها فيها، لكن معظم الأسر لدينا غير عارفة بذلك ولا واعية بدورها هنا، ومن ثم فإن الآمال تنعقد على المدرسة . أنا لا أريد أن أشرح كيف نحبب الكتاب إلى الناشئة، فقد تكلمت أنا وغيري في هذا حتى بُحّ الصوت لكن أود أن أقول : لماذا يكره الأطفال الكتاب ؟ أظن أن ظروف تماسّ أطفالنا في المدارس مع الكتاب هي ظروف سلبية ، ظروف إملاء، وضغط وقهر وتلقين وخوف من الامتحانات ، وظروف سأم وملل من الحصص المتتابعة التي يفقد الطالب فيها الحيوية لأنه يفقد الدور والمساهمة . لنقارن تعلق الأطفال بحكايات الأمهات والجدات والتي اعتادوا سماعها قبل النوم بنفورهم من القراءة، لنجد أن أسلوب القص الجميل واللطيف والقريب من قلب الطفل هو الذي يشكل المفارقة . إذن تغيير أسلوب التعليم، وتحسين

الأجواء داخل حجر الدراسة مع بذل شيء من الجهد في تقريب المعرفة وتسهيلها، قد يساعد فعلاً على تحسين العلاقة بين الأبناء وبين الكتاب، وهذا هو الذي يفسر تعلق الطفل في الدول المتقدمة بالكتاب .

ب - أليس من المؤسف أن يدرس الطالب ويمتحن في الكثير الكثير من المواد والموضوعات، ولا يدرس أي شيء يذكر عن الشخصية الإنسانية وعن العواطف وعلاقتها بالأفكار وعن كيفية اكتشاف الذات ومعرفة نقاط القوة ونقاط الضعف الكامنة فيها ؟ ! هذا هو واقع الحال، مع أن العالم كله بات يؤكد على أن معرفة الإنسان بنفسه شرط أساسي لنهوضه وتقدمه . نحن نريد أن نركز على هذا الموضوع في المرحلة الثانوية والجامعية، ونحن نحتاج من أجل تغطية ذلك إلى تقرير مادتين أو ثلاث مواد على الأقل، ومن المسائل والموضوعات المهمة على هذا الصعيد الآتي :

• نقاط القوة في الشخصية مثل الإرادة، والعزيمة، والصدق، والمثابرة، ومعرفة الأهداف، والاستقامة، واللطف، والاهتمام بالآخرين، وحسن الإنصات، والحرص على التعلم، والتعاون .

• نقاط الضعف في الشخصية مثل الكذب، والتسويف، والخوف من اتخاذ قرار، والأنانية، والملل السريع، والارتجال، والكسل، و ضعف الطموح . ولا يكفي هذا بل لابد من تعليم الطالب كيفية ترسيخ الصفات الحميدة في الذات، وكيفية التخلص من الصفات السلبية والسيئة .

• تمليك الطلاب أسس التفكير الموضوعي، من نحو احترام

الرياض ١٤١٠

الدليل، والبحث عن الحقيقة، وعدم الخضوع للهوى والمؤثرات الخارجية عند إصدار الأحكام، إلى جانب الحذر من التعصب، والمبالغة، والرؤية الجزئية، والكيل بمكيالين ؛ وتعليم الطلاب طبيعة الارتباط بين المقدمات والنتائج، وأن المعلومات والمقدمات الظنية لا تفضي بنا إلى نتائج وأحكام يقينية . وإذا نظرنا إلى واقع التفكير لدى العامة، وكثير من الخاصة فإننا نجد الحاجة ملحة إلى تدريس هذه الموضوعات في جميع المراحل وفي قوالب مختلفة .

• نحن نعرف أن المدارس - وكذلك الجامعات - لا تستطيع أن تقدم إلا جزءاً يسيراً من المعلومات في أي علم من العلوم وأي تخصص من التخصصات، ومن ثم فإن من مسؤولياتها تأهيل الطالب للإبحار في تخصصه بمفرده وذلك من خلال أمرين : الأول تعليم الطالب كيفية التعامل مع النصوص الصعبة وكيفية الاستفادة من شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) بالإضافة إلى دلالته على الموسوعات والمراجع الأساسية في تخصصه .

الثاني : التركيز في التدريس في المرحلتين الثانوية والجامعية على ما يمكن أن نسميه (مفاتيح التخصص) أي تاريخه ومسلماته والمنعطفات الأساسية التي مر بها، بالإضافة إلى أهم الأعلام الذين لهم شأن في تطوره، و توضيح آفاق نموه، ودوره في سعادة البشرية وحل مشكلاتها، ومدى ما يمكن للفرد العادي أن يستفيد منه . ويؤسفني القول : إن هذه الأمور شبه مهملة في تدريسنا، ولهذا فإن معظم الطلاب يشعرون أن المواد التي يدرسونها عبارة عن ركام من المعارف الجزئية ليس أكثر، وبالتالي فإنهم لا يملكون رؤية منهجية لها.

• لا يستطيع الأبناء على اختلاف أعمارهم بلورة تصور جيد للواقع. وهذا بسبب أن كثرة العناصر التي تسهم في تكوينه، تجعل رؤيته ناقصة أو مشوهة . ولن نكون موضوعيين إذا قلنا : إن العالم الإسلامي يعيش واقعاً واحداً، وحين نفترض ذلك، فإننا سنصير إلى التعميم الشديد. وهذا يؤذي الرؤية الموضوعية : ومن هنا فإن على المناهج الدراسية والأنشطة (اللاصفية) في كل بلد، أن تتحمل عبء تقديم خلاصة أمينة ودقيقة قدر الإمكان

للواقع السائد في ذلك البلد، وهذه الخلاصة ينبغي أن تشتمل على الآتي :

أ ـ الموقع الجغرافي للبلاد. وما يترتب عليه من ميزات وسلبيات. وطبيعة علاقة البلد بجيرانه .

ب ـ الموارد الاقتصادية للبلد، وما ينظر إليه على أنه ثروات كبرى. وكذلك الموارد الشحيحة والتي تشكل نقطة ضعف في البلد، وذلك مثل المياه والطاقة والغابات والحديد والذهب والأراضي الخصبة .....

ج ـ العادات والأخلاق الاجتماعية الحميدة، والعادات والأخلاق السيئة ،التي تحتاج إلى علاج .

د ـ فرص العمل المتاحة والبطالة والتحديات المعيشية .

ه ـ الطموحات والآمال والتطلعات ومدى مساهمة الشباب في تحقيقها . أنا أعرف أننا نعاني من مشكلة عويصة، تتمثل في وجود أطراف عديدة، ترى في قول الحقيقة تهديداً لشعاراتها أو مصالحها، ومن ثم

فإنها تمارس نوعاً من التزوير المتعمد للواقع، وهذا جعل كثيراً من الطلاب حائرين في الموازنة بين ما يسمعونه من هنا ومن هناك، لكن مع هذا فعلينا معاشر المعلمين أن نسدد ونقارب .

• تعليم الطلاب في المرحلة الثانوية وفي الجامعة مايطلقون عليه (العصف الذهني) وذلك يبدأ بأن يقوم عدد من الطلاب بتحديد موضوع من الموضوعات ثم يدلون بآرائهم المختلفة حوله من غير السماح بالاعتراض على أي فكرة تقال، فإذا تكلم الجميع، أخذوا بغربلة الأفكار التي قيلت من أجل تحديد الأقرب منها إلى الصواب وتحديد أكثرها قابلية للتطبيق . والغرض منه تشجيع الطلاب على أن يكون لهم آراء مستقلة وتحفيزهم على استخدام أذهانهم والإدلاء بما يتوصلون إليه دون خوف من الخطأ أو النقد ؛ ومحاولة توجيه الأذهان إلى الابتكار والمجيء بشيء جديد عوضاً عن التبرم والشكوى والحديث المستمر عن الأشياء السيئة.

• تدبير الشأن الشخصي واتخاذ القرارات الخاصة من الأمور التي يحتاج إلى معرفتها كل واحد منا، ولهذا فإن الطلاب محتاجون إلى من يعلمهم كيفية التخطيط للشأن الخاص وكيفية رسم الأهداف والتعامل مع المشكلات، إلى جانب التعبير عن الذات ومخاطبة الآخرين والتواؤم معهم . إن هناك كثيراً من طلاب الجامعات الذين يرتبكون في صياغة عشر جمل أو كتابة خمسة أسطر من أجل طلب وظيفة أو التعبير عن أزمة يعيشونها، ولدينا طلاب كثيرون أيضاً لا يعرفون أي شيء عن مواصفات الهدف الجيد، كما لا يعرفون كيف يضعون خطة أو برنامجاً للتثقيف الذاتي، والسبب في كل هذا واحد، وهو قصور المناهج الدراسية، وعدم

اهتمام واضعيها بأمور من هذا القبيل، مع أن الأشياء التي ذكرناها مهمة جداً لتحقيق النجاح الشخصي، وهو لا يقل في حال من الأحوال أهميةً عن النجاح في امتحانات المدارس والجامعات .

• تدريس الطلاب العوامل المتفق عليها في نهوض الشعوب والمجتمعات من مثل : الإدارة السياسية القديرة والنزيهة، التعليم الجيد، والقضاء العادل، والتربية الأسرية الفعالة، وكثرة المؤسسات الأهلية التي لا تهدف إلى الربح ووجود شريحة واسعة من الناس تتحلى بالاستقامة، وتبادر إلى الخير ... وأعتقد أنه لا بد من إتاحة الفرصة للطلاب كي يعبروا عن آرائهم في هذه الأمور، وينخرطوا في نقاش حر ومفتوح، وإلا كانت الفائدة محدودة . وقد يكون من الصعب التحدث عن عوامل النهضة دون الحديث عن الأسباب التي أدت إلى توقف الحضارة الإسلامية عن العطاء (تعبير ملطّف جداً) ودراسة تلك الأسباب مهمة لتشكيل وعي جديد بمسؤوليات الإصلاح الشامل، والذي على الجميع أن يضطلعوا بدور فيه. الأمم تعلم لتتخذ من التعليم وسيلة لتحسين مستوى حياتها، ووسيلة لحل مشكلاتها، وينبغي أن يكون هذا حاضراً في الذهن على نحو دائم، لأنه الأداة الوحيدة لاجتناب تقرير مواد لا يعرف الطلاب كيف يستفيدون منها، والأداة الوحيدة لحفزنا على التفكير في الأمور التي لا يصح الجهل بها واستبعادها .

٣ـ المعلم :

لا أتصور أي نهضة للتعليم من غير النهوض بالمعلم، فهو بحق محور العملية التعليمية، ورائدها، ولا أدري إن كان أحد سيستفيد شيئاً مما سأقوله هنا، أو كان هناك أشياء فعلاً سوف تتغير بسبب عشرات الكتب التي تتحدث عن مسؤوليات المعلم وأخلاقياته، فالأمور في غاية التعقيد، ولكن يبدو أننا سوف نستمر في الكتابة وفي الموعظة إلى أن يتوفر بديل أفضل ! أشرت فيما مضى إلى أن صعوبة مهمة التعليم تنبع أساساً من المهام المعقدة والكثيرة التي يقوم بها المعلمون، وأشرت إلى أن المعلم يقوم بدور ناقل المعرفة والمربي والمرشد والداعية إلى الخير والناصح والقاضي .ولهذا فإن تأهيل المعلم الجيد، يجب أن يستهدف إعداده للقيام بتلك الأدوار على أفضل وجه ممكن . وهذه لمحات سريعة عن هذه القضية المهمة :

أ- أول ما يواجهنا في مسألة النهوض بالمعلم هو اختيار المعلم، لأن استعدادات الناس ووضعياتهم العامة تتباين تبايناً كبيراً، ومهما كانت الجامعات وكليات المعلمين ممتازة ومتفوقة، فإنها لا تستطيع إعادة صياغة طلابها على نحو شامل . من المهم ابتداء أن تكون مهنة التعليم مهنة جذابة، أي قادرة على الظفر بأعداد جيدة من الطلاب المتفوقين الذين يرغبون في دخول كليات المعلمين وأعداد جيدة من طلاب الكليات الأخرى الذين يحبون الانتساب إلى مهنة التدريس، ويسعون إلى ذلك . وبما أن مهنة التعليم مهنة شاقة، فإنها حتى تكون جذابة ستكون في حاجة إلى الحوافز القوية، وإلا تقدم إليها من لم يجد وظيفة غيرها، لكن من المهم أيضاً أن نقول : إن إغداق الميزات على أي مهنة من المهن، قد يأتي بنتائج

عكسية، حيث تصبح متعلق أنظار أعداد كبيرة من الباحثين عن المنافع الشخصية، وهذا موجود فعلاً في بعض الدول، ولهذا فإن مهنة التعليم تحتاج إلى أمرين :

الأول: هو حوافز وميزات جيدة من أجل جذب أفضل العناصر .

الثاني: ضوابط صارمة للقبول، حتى يتم استبعاد الطامعين وقبول الممتازين فعلاً .

ومن المؤسف في هذا السياق أن أقول : إنني رأيت أننا في أحيان كثيرة لا نمنح أنفسنا من الوقت لاختيار معلم مثل الوقت الذي نستغرقه عند شراء سيارة أو ثلاجة ! فنحن دائماً مستعجلون . بعض الناس يظن أن استحقاق الناس للوظائف - و منها التعليم - ينبغي أن يتم بناء على الشهادات التي يحملونها ليس أكثر، وينظرون إلى التدقيق في اختيار المعلم على أنه نوع من التحيز لشريحة معينة ... وهذا غير صحيح، حيث إن من الواضح أنه لا يصلح للانضمام إلى السلك العسكري أو سلك القضاء أو سلك السفراء ... كل شخص يحمل مؤهلاً علمياً فحسب، وإنما لا بد من النظر إلى أمور أخرى مثل اللياقة البدنية ومثل الخصائص والسمات الشخصية، ومثل المظهر والسلوك و(الموقف العدلي) ومن هنا فإني أعتقد أنه ينبغي ألا يقبل في مهنة التدريس من لا يقيم الصلاة، و من يظهر عليه الفسق، ومن كان مظهره غير لائق، ومن لا يعرف عنه ميل للقراءة . في بعض الدول لا يقبل الطالب في كلية الطب مهما كانت درجاته في الثانوية إلا إذا أثبت أن لديه ميولاً للعمل في هذه المهنة

الإنسانية، كأن يكون حضر بعض الدورات الإسعافية، أو تطوع للخدمة في بعض المشافي . لا أعرف كيف يدعو المعلم طلابه إلى الخير، أو يأمرهم بالمعروف، أو ينهاهم عن المنكر إذا كان لا يصلي، ولا يقيم لشعائر الإسلام وزناً ؟ ولا أدري كيف يحدث المعلم المدخن طلابه عن مضار التدخين ؟ ولا أدري كذلك كيف يبث المعلم الذي لا يحب القراءة حبّ التطلع إلى الجديد والتزود من المعرفة بين طلابه ؟ في بعض الدول العربية قامت محاولات لإجراء اختبارات جيدة لمن يريد أن يصبح معلماً، وتم اقتباس بعض الأساليب الغربية، لكن الذي حصل، هو ما يحصل معنا كل مرة، وفي كل مجال، وهو التطبيق الشكلي، وهذا هو الداء الذي يفتك بالأمة ،إنه (داء الشكلية)و(المظهرية)، حيث تجد تشابهاً بين المظاهر والأشكال لكن لا معاني ولا مضامين، ولا فاعلية، وفي النهاية لا ثمرات ولا نتائج ! نحن محتاجون فعلاً إلى اختبارات شديدة وصارمة ومتنوعة لكل من يتقدم للعمل في التعليم، ولا بد مع هذا من الحصول كل خمس سنوات على رخصة للاستمرار في العمل، يتم منحها من خلال هيئة وطنية عامة بعد النجاح في امتحان يعقد لهذا الغرض . وعلى الذي لا ينجح أن يتحول إلى عمل إداري، أو يذهب إلى حيث شاء . وينبغي أن تكون تلك الهيئة من النزاهة والقوة والاستقلال في وضعية، تمكنها من الإفلات من رذيلة الرشوة والواسطة، فهل هذا ممكن ؟

ب ـ إذا كان المعلم ـ كما أشرت من قريب ـ هو محور التعليم، فهذا يعني أن التقدم في التعليم ينبغي أن يبدأ بتقدم المعلم . وأنا شخصياً أفضل حصر الجهات التي تخرج المعلمين من أجل تسهيل وضع ضوابط قبولهم

ومن أجل التركيز على مناهج إعدادهم . في الماضي كانت هناك ضرورة للتساهل في قبول الراغبين في الانتساب إلى هذه المهنة بسبب شدة الطلب على المعلم وعدم وجود الأعداد الكافية أما اليوم فإن لدينا فائضاً في معظم التخصصات، لكن المشكلة تكمن في النوعية . وأعتقد أن مهنة التعليم قد تضررت كثيراً في العقود الأربعة الأخيرة، فلم تعد مصدر تميز للممارسين لها،ولا مصدر فخر و اعتزاز، وصار من المألوف أن يذكر في الكثير من السياقات ـ المعلمون بعد الأطباء والمهندسين . وهذا يعود أساساً إلى التساهل في شروط القبول، وإلى ضعف مناهج إعداد المعلمين ، كما يعود إلى تدهور العائد المادي لمهنة التدريس - هذا في بعض الدول وليس في جميعها - وإن استرجاع شيء من أمجاد التعليم والمعلمين ، يحتاج فعلاً بعد التشدد بشروط القبول إلى إعادة النظر في مناهج إعداد المعلم . ومما يحتاج إلى اهتمام جديد وتركيز بالغ الآتي:

• تبصير المعلم بالأدوار والمهمات التي تنتظره، وأهمها التوجيه ونقل المعرفة، وتغيير سلوك الطلاب .

• إثراء معرفة المعلم ـ أي الذي سيصبح معلماً ـ بالتخصص الذي سيدرسه، وأنا أشجع أن يتم تشعيب الخطة الدراسية للمعلمين بدءاً من السنة الثالثة من أجل إتاحة التركيز على التخصصات المتقاربة . إن المدرس الذي سيمارس تدريس التاريخ ـ مثلاً ـ لا يحتاج إلى أن يعلم كيفية تدريس العلوم أو الرياضيات أو اللغة العربية . ويجب أن يشمل الإثراء معرفة تاريخ العلم الذي سيقوم بتدريسه على نحو معمق، وذلك من أجل استيعاب مسلماته وأصوله والمسائل الخلافية فيه واستيعاب حركة الاختلاف في

العلم ، أي أن يعرف المعلم الوسائل الخلافية التي تم حسمها، ويعرف المسائل الخلافية التي يتم طرحها من جديد . والمعلم يحتاج إلى جانب ذلك إلى الإلمام ببعض الطرائف والنكات التي تتصل بالمواد التي يدرسها، وذلك من أجل إضفاء جو البهجة والإثارة داخل قاعات الدرس . ولا ننسى في هذا السياق قيمة معرفة سير وأخبار وتراجم الرجال العظام الذين أسسوا التخصص، وأسهموا في تطوره . وعلى سبيل المثال فإن طرح نبذه بين الفنية والأخرى عن العلماء الذين نالوا جوائز عالمية كبرى مثل جائزة الملك فيصل أو جائزة (نوبل) إن مثل هذا الطرح سوف يساعد الطلاب على فهم الإضافات القيمة التي نال على أساسها أولئك الأعلام تلك الجوائز . أيضاً يجب أن يشمل إثراء معرفة المعلم بتخصصه المراجع الأساسية والموسوعات والكتب المهمة في بناء التخصص وكذلك مواقع (الإنترنت) والجامعات الكبرى في العالم والتي لها شهرة خاصة في تقديم ذلك التخصص . إن هذه المعارف سوف تجعل المعلم متابعاً جيداً لتخصصه، وهذا سيكسبه مصداقية عالية في نفوس الطلاب، وهو في حاجة ماسة لها إذا ما أراد أن يحصل على تفاعل جيد من طلابه

• أقترح أن يكون ضمن المواد التي تقرر في إعداد المعلمين مادة تسمى (علم نفس الطالب) حيث إن من المؤكد أن وضع التعلم الذي يكون فيه الطالب طيلة فترة الدراسة بالإضافة إلى طبيعة العلاقة التي تربطه بأساتذته وزملائه - يوجد لديه وضعاً نفسياً خاصاً، لعل من ملامح هذا الوضع التبرم من طول المقررات، النظرة بحساسية بالغة إلى الأساتذة إلى درجة اتهامهم بالظلم ومحاباة بعض الطلاب على حساب بعضهم

الآخر، بالإضافة إلى الضجر من نصائح الأساتذة، ومحاولة التهوين من شأن المدرس وسطوته .... شيء جيد جداً أن يكون المعلم على بصيرة بهذه الأمور وغيرها وبصيراً بأسلوب التعامل معها . وأتمنى أن يكون لدينا موقع على الإنترنت، يتولاه جماعة من المعلمين، يكون اختصاصه تجميع ما واجهه المعلمون من (مقالب) طلابهم مع تحليل علمي و نفسي لذلك بالإضافة إلى تجميع أساليب المعلمين في التعامل معها، وإجراء نقاش موسع حول كل ذلك.

• شيء أخير يتعلق بإعداد المعلم، وهو يتصل بأسلوب التدريس وإدارة الفصل الدراسي. في البداية أقول قد كثرت الشكوى من شيئين: القهر والضغط النفسي الذي يواجه الطلاب داخل الفصول، وأسلوب التلقين المتبع في التدريس، وهذه الشكاوى حقيقية وواقعية والمعاناة فعلاً كبيرة. وعلى صعيد الشكوى الأولى، فإن من المهم حقاً أن يُدرَّب المعلم على إضفاء جو المرح والسرور على الموقف التعليمي، وذلك من خلال سرد بعض القصص والطرف والنكات التي تُدخل البهجة على نفوس الطلاب،وقد جربت هذا مع طلابي، وكان له أجمل الأثر في نفوسهم. بعض الأساتذة يخشون من أن يؤدي هذا إلى تجاوز بعض الطلاب للآداب والرسوم التي ينبغي أن تظل قائمة في قاعة الدرس، وهم على حق في ذلك، ولكن إذا أرسينا تقاليد الاحترام المتبادل بين الأساتذة وطلابهم، فإن الأمور يمكن أن تسير على نحو صحيح. قالوا: "العلم روح تنفخ لا مسائل تنسخ" وحتى يتمكن المعلم فعلاً من نفخ روحه والتغلغل بمعانيه ومعلوماته في نفوس طلابه، فلا بد أن يكون أولئك الطلاب في وضع مريح نفسياً، وهذا ما علينا السعي إليه.

أما على صعيد الشكوى الثانية، فعلى كثرة ما كتب حول الاعتماد على الحفظ في التعلم والاعتماد على التلقين في التعليم، فإنه لم تتغير أشياء كثيرة، ويبدو أن التغيير شيء صعب، لأن أسلوب الرجل هو الرجل ذاته، وإذا كان للتغيير أن يبدأ، فبدايته الصحيحة تكون في كليات المعلمين، والجامعات التي تؤهل طلابها لأن يكونوا معلمين. هناك حقيقة ينبغي ألا تغيب عن بالنا، وهي أن الطالب يتعلم فعلاً حين يكون التعليم بالنسبة إليه عبارة عن عملية اكتشاف ذاتي، أي حين يبذل جهداً شخصياً كبيراً أثناء التعلم، وهذا يكون من خلال اعتماد أسلوب الحوار في التعليم وأسلوب طرح الأسئلة، وحث الطلاب على الإجابة عنها، كما يكون من خلال إعطاء مساحات أوسع للتعليم العملي والتطبيقي وكتابة البحوث والعودة إلى الموسوعات. وكل هذه الأمور يجب أن يتعلمها طلاب كليات المعلمين في كلياتهم.

ج- مهما نال المعلم من حقوق، ومهما كانت مكافأته مجزية، فإنه في الحقيقة يعطي أكثر مما يأخذ، وإذا أردنا أن نعرف دور المعلمين في المجتمع فلننظر إلى المسافة التي تفصل بين الأمي وبين خريج الجامعة، إنها مسافة هائلة على كل الصعد، هذه المسافة هي من صنع المعلمين، وبفضل جهودهم، لهذا أقول: إن الناس غير قادرين على مكافأة المعلم، ومن ثم فإن من مصلحته أن يلجأ إلى من يقدر على مجازاته بأحسن مما صنع، وهو الله - تعالى - وذلك يكون من خلال إخلاص النية والاحتساب وطلب المثوبة والمعونة من الله - تعالى - على نحو مستمر. ومن المهم إلى جانب هذا أن ندرك أن مهنة التعليم ليست مهنة الغنى والثراء، ولهذا

فالتطلع لا ينبغي أن يذهب بعيداً عن حدود الستر والحياة الكريمة (وكثير من المدرسين يرضى بالحياة نصف الكريمة) لكن على المجتمع أيضاً أن يقدم الدعم للعملية التعليمية، والدعم المطلوب نوعان: دعم مادي ودعم معنوي. الدعم المادي يتجسد في دعم المدارس الحكومية على مستوى المباني والتجهيزات ودعم المعلمين من خلال تقديم بعض التسهيلات والخدمات المجانية بغية مساعدتهم على تحمل أعباء الحياة. أما الدعم المعنوي، فيتمثل في تفاعل الأسرة مع المدرسة ومساعدتها على القيام بدورها التربوي والتعليمي. وأنا أعتقد أنه ينبغي أن يكون في كل مدرسة هيئة من المدرسين ليس لها عمل سوى تنشيط العلاقة بين المدرسة والأهالي، و تفعيل مجالس الآباء، وتنظيم برامج جدية ومثمرة لتوفير مزيد من المعرفة عن الخلفية الثقافية والمعيشية والاجتماعية للطلاب بغية الاستفادة منها في تعليمهم وتربيتهم.

إن الحديث عن التعليم والمعلمين حديث أثير إلى نفسي، وقد كتبت في هذه القضايا الكثير، وأنا لم أهدف في هذا الكتاب إلى استقصاء أي موضوع من الموضوعات التي طرقتها، وربما تركت التنبيه على أمور، تعد أهم مما تناولته، لكن كل ما ذكرته في هذا الكتاب هو من الأمور التي تشغل بالي، وإن كان هناك أمور كثيرة أخرى أهتم بها لكني لم أتحدث عنها هنا بأي شيء لأسباب مختلفة. ومن الله الحول والطول،وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الرياض ١٤١٠

خاتمة

الحمد لله على ما يسرٌ وأعان، و الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبعد: فإني لم أستطع أن أكشف عن كل الرؤى والأفكار والمنهجيات التي تشكل وجهتي بسبب محدودية المساحة المحددة لهذا العمل، لكني أعتقد أنني كشفت عن الكثير من ذلك، وكنت أود أن أتحدث عن قضايا الإصلاح وتجديد الفكر الإسلامي، وعن مسائل تنمية الشخصية، ومسائل أخرى عديدة.

وقد حاولت في هذا العمل أن أكون قريباً من القارئ،وكنت أتمنى لو أستطيع أن أكون أقرب وأقرب ،ولكن في ذلك بعض المحذورات التي لا تخفى عن القارئ اللبيب. وحاولت كذلك أن اكتب بأسلوب سهل ميسّر حتى أتيح التفاعل مع هذا الكتاب لأكبر شريحة ممكنة من القراء الكرام. وقد وجدت بعد أن أنجزت هذا الكتاب أن في نفسي أمنيات وتطلعات عديدة، ووجدت أن هذه التطلعات منها ما هو خاص وشخصي ومنها ما هو لأمة الإسلام عامة. أما تطلعاتي الشخصية فإنها ستظل طي الكتمان،لأضعها في خلواتي على أعتاب الذي يعلم السر وأخفى، وهو وحده القادر على تحقيقها. أما أمنياتي لأمة الإسلام،فهي عديدة سأذكر بعضها من باب الإعلام والتأكيد ليس أكثر، لعلها ترسخ في أذهان بعض القراء؛ومنها:

• كلي أمل ألا تنسى هذه الأمة أهدافها الكبرى في هذه الحياة، وتنشغل بالوسائل والصغائر، فنحن هنا لعبادة الله - تعالى - والفوز برضوانه. ونحن هنا لتبليغ رسالة الإسلام للعالمين.

• أتطلع إلى اليوم الذي تصبح فيه إشاعة العدل وإيصال الحقوق إلى أصحابها، كما تصبح مكافحة الفساد أولوية حضارية وتنموية لكل شعوب العالم الإسلامي، لأن الأمم لا تنهض على النحو الصحيح من غير هذه الأمور.

• أمة الإسلام أمة كبيرة وقوية، وتملك الرؤية للتقدم،لكنها مرتبكة في صياغة قوتها وإخراجها بالشكل المؤثر على الساحة الدولية، وليس أمامها سوى أن تعمل على إنشاء ما لا يحصى من الروابط والهيئات والاتحادات والمؤسسات والجمعيات القادرة على التعبير عن حاجات الأمة وعن حقوقها، والقادرة على حماية مصالحها، وإني أتطلع إلى اليوم الذي ينفتح فيه الوعي الإسلامي على هذه المسألة.

• أمنيتي الأخيرة تتركز في توجه الأمة إلى تنشيط الجانب الروحي في حياتها؛ لأن الصدق والإخلاص والأنس بالله - تعالى - والشوق إليه ورجاءه والثقة به، تشكل جوهر التدين، وهي مصدر لمسرات لا تنتهي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للناس أجمعين، وعلى آله ومن والاه إلى يوم الدين.

د. عبد الكريم بكار

الفهرس

مقدمة ٥

رؤية عامة ٧

١ – ميلي الشديد إلى امتلاك الرؤية الشاملة ٨

٢ – الاهتمام بمعرفة السنن: ١٠

أ– الناس يميلون إلى المبالغة حين يتحدثون عن أنفسهم ١١

ب– القوة موصولة بالبغي والعدوان ١٢

ج– الإجماع موصول بالكليات ١٣

د– الإنسان كائن اقتصادي ١٥

هـ – الناس كائنات عاطفية ١٧

٣ – لا نستطيع أن نحصل على كل شيء ١٨

أ– لا يستطيع المرء أن يعيش حياته بالطول والعرض ١٨

ب– للحياة داخل الوطن ميزة، وللغربة ميزة أخرى ١٩

ج– لا نستطيع أن نصوغ خطاباً يناسب كل الناس ٢١

د- لدى الناس نزوع خفي نحو الشمولية ٢٣

هـ- التوسع في الكم لا يكون إلا على حساب الكيف ٢٤

٤ - كل شيء إذا همشته خسرته ٢٥

أ- خسارة طلاب المقاعد الخلفية ٢٦

ب- تهميش القبيلة أضعف انتماءها الوطني ٢٦

ج- تهميش المرأة، جعلها من غير رسالة ٢٧

د- يخفت صوت الوازع الداخلي كلما تجاهلناه ٢٨

هـ- التركيز الشديد على الحفظ يضعف الخيال ٢٩

٥ - التوازن والاعتدال ٣٠

أ- التوازن المطلق غير موجود ٣٠

ب- فقد التوازن في المجال الدعوي ٣١

ج- لن يكون العالم واحة سلام ٣١

د- التوازن بين العمل والتنظير ٣٢

٦ - شدة اهتمامي بالأفكار العظيمة ٣٥

٧ - أهمية التفريق بين الطبيعي وغير الطبيعي ٣٦

أ-ليس الشيء الطبيعي هو الشيء الصحيح دائماً ٣٧

ب- معرفة الطبيعي تعين على توفير الجهد ٣٧

الرياض ١٤١٠

ج- لماذا يصعب التفريق بين الطبيعي وغير الطبيعي ؟ ٣٨

د- أهمية الإحصاءات في معرفة الطبيعي ٣٩

هـ- شيء من التنظير مهم لكل مسلم ٤٠

٨ – هل أنا متفائل أو متشائم؟ ٤٠

أ- علينا ألا نستوحش من الأسئلة التي لا أجوبة عليها ٤١

ب- لا وجود لمفكر لا يملك رؤية نقدية ٤٢

ج- عدم الجزم يستهدف الدقة في التعبير ٤٣

د- المثالية شيء ملازم للتنظير ٤٤

٩ – التقدم إما أن يكون شاملاً، أو لا يكون ٤٥

– دور العمل الخيري تكميلي ٤٦

– العمل الخيري جهدٌ في استدراك القصور ٤٦

في القراءة و التزود المعرفي ٤٩

١ – هل كان الجيل السابق محباً للقراءة أكثر من الجيل الحاضر ؟ ٥١

٢ – الأسرة هي المسؤولة عن غرس حب القراءة في نفس الطفل ٥٢

أ- ضرورة إيجاد تشريعات جديدة لنشر حب القراءة بين الأطفال ٥٣

ب- لابد من وجود مجلس وطني للقراءة في كل قطر ٥٤

ج- الارتقاء بالمهن شرط لتعميم حب القراءة ٥٥

٣ – كيف نختار الكتاب الجيد ؟ ٥٦

٤ – توزيع الوقت على فروع المعرفة ٦٠

أ– الثقافة الإسلامية ٦٠

ب– الثقافة العامة ٦١

ج– الثقافة المتخصصة ٦٢

د– برمجة الوقت من أجل القراءة ٦٣

هـ– هل تجب قراءة الكتاب إلى آخره ؟ ٦٥

و– كيف نستفيد من محفوظاتنا ؟ ٦٦

في الدعوة والبلاغ ٦٩

– بدايات ٧١

– حول المنهج الدعوي ٧٥

١ – تعدد المناهج الدعوية ٧٦

أ– لا أحد يقول: إن الاختلاف خير من الاتفاق ٧٦

ب– لا يصح تضييع الممكن في طلب المستحيل ٧٦

ج– الاختلاف آية من آيات الله ٧٧

د– الدعوة إلى الله – تعالى – علم وفن ٧٧

هـ– لابد من الاختلاف عند النظر في الفروع ٧٨

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض ١٤١٠

و- غموض المصطلحات سبب أساسي في الاختلاف ٧٩
ز- الاختلاف في فهم الواقع ٨٠
ح- تأثير النشأة في اختلاف الدعاة ٨١
ط- كيف نفرق بين الخلاف السائغ والمذموم ؟ ٨١
٢ - التخصص الدعوي ٨٦
أ- لا إتقان من غير تخصص ٨٧
ب- أهمية البحث العلمي الدعوي ٨٧
٣ - جاذبية الدعوة ٩١
أ- نفور الناس من الوعظ المباشر ٩٢
ب- اعتماد التنويه عن الايجابيات و السلبيات ٩٢
ج- القيم لا تقبل الإكراه ٩٣
د- أهمية نظافة الشارع المسلم من الموبقات ٩٥
هـ- تنظيم العمل الدعوي، واستخدام العنف ٩٥
- تنظيم العمل الدعوي ٩٥
- سرية العمل الدعوي ٩٧
٤ - مابين الداعية والفقيه ١٠٢
أ- ما يجمع بين الداعية والفقيه ١٠٢

ب- دور الداعية هو المبادرة والتأسيس ودور الفقيه هو الضبط والحماية ١٠٣
ج- الداعية يحتاج إلى الرؤية الكلية أما الفقيه فيحتاج إلى إتقان معرفة الأحكام ١٠٤
٥ - ملاحظات متفرقة ١٠٧
١ - التدريب التعليمي ١٠٧
٢ - تعميم فضيلة الاهتمام بالدعوة ١٠٩
أ- يجب أن نجعل من الدعوة قضية حاضرة في وجدان كل مسلم ١١١
ب- تبصير الناس بالأخطاء الأكثر انتشاراً ١١١
ج- مأسسة العمل الدعوي ١١٢
٣ - إدراك الذائقة الثقافية الجديدة ١١٣
أ- لا يمكن للداعية أن يصوغ خطاباً، يناسب كل الناس ١١٣
ب- من المهم للداعية أن يدرك سمات الخطاب المناسب للوسيلة التي يستخدمها ١١٤
ج- ملامح الذائقة الثقافية الجديدة ١١٤
د- كيف يحسّن الداعية مستوى خطابه ؟ ١١٦
٤ - الروح الإيجابية ١١٧
أ- بث روح التفاؤل ١١٨
ب- قرن الحديث عن المشكلات بالحديث عن حلولها ١١٩
ج- لنتحدث عن أمور في إمكان الناس القيام بها ١٢٠

د. عبد الكريم بكار

د- عدم تحميل الناس ما لم يكلفهم الله - تعالى - بحمله ١٢٠
هـ - تعزيز حب الخير لدى الناس ١٢٠
٥ -استخدام الوسائل الجديدة في الدعوة ١٢١
أ- تأسيس موقع على الإنترنت، لتبادل الخبرات الدعوية ١٢١
ب- استخدام (الجوال) في تبليغ الدعوة ١٢٢
ج- التواصل مع الناس عن طريق البريد (الإلكتروني) ١٢٢
د- اللوحات الإعلانية والشعارات ١٢٢
في التربية والتعليم ١٢٥
مبادئ تربوية عامة ١٢٧
١ - التربية أم الحيرة ١٢٧
٢ - صبر لا ينفد ١٢٨
٣ - مصلحة الطفل أولاً ١٢٩
٤ - التربية شيء من كل شيء ١٣١
٥ - الأسرة قلعة التربية ١٣٣
أ- الاهتمام بالأسرة شكل من أشكال العبادة ١٣٣
ب- الإنسان كائن يتعلم باستمرار ١٣٥
ج- هندسة الجو الأسري ١٣٦

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض
١٤١٠

قيم وأهداف تربوية ١٣٧
١ – بلورة الهدف التربوي وتعميمه ١٣٨
٢ – الاستقامة على أمر الله ؛ تعالى ١٤٠
أ– التركيز على أصول الاعتقاد ١٤١
ب– تقوية روح الانتماء للأمة وأهمية الالتزام ١٤٢
ج– تنمية الوازع الداخلي ١٤٣
٣ – النجاح والتفوق ١٤٥
أ– على الأسرة تثقيف أبنائها بمفاهيم النجاح ١٤٧
ب– النجاح الحقيقي هو النجاح الذي يرضى الله؛ تعالى ١٤٧
ج– لكل جهد مضاعف ثمرة مضاعفة ١٤٧
د– النجاح ليس مطابقاً للذكاء ١٤٨
هـ –الإنفاق بسخاء على تعليم الأولاد ١٤٩
و– لنجعل الأطفال يحلمون ١٤٩
ز– تنشئة الطفل الجاد ١٥٠
ح– أركان النجاح ثلاثة ١٥١
ط– بعض الفروق بين الناجحين والمخفقين ١٥٤
٤ –تربية لصالح المجتمع ١٥٧
أ– العقيدة أساس البناء الاجتماعي الصحيح ١٥٨
ب– الكليات الخمس محاور للتربية الاجتماعية ١٦٠

ج- في وجه التعانف ١٦١
التعليم : كيف ننهض به ؟ ١٦٧
١ - البيئة التعليمية ١٦٩
أ- الشعور بالرضا لدى منسوبي المؤسسة التعليمية ١٧٠
ب- حساسية المدرسين نحو المنهج المستتر ١٧٢
ج- تأهيل عالي المستوى ١٧٤
٢ - ما الذي نعلمه ؟ ١٧٧
أ- الاعتراف بالإخفاق في تحبيب الكتاب إلى الطفل ١٧٨
ب- مقرر من أجل اكتشاف الذات ١٧٩
- تقديم رؤية موضوعية لواقع البلد ١٨١
٣ - المعلم ١٨٥
أ- اختيار المعلم وبعض ضوابط ذلك الاختيار ١٨٥
ب- إعداد المعلم وتثقيفه ١٨٦
ج- حقوق المعلم ١٩٠
الخاتمة ١٩٣

صرخاتنا تتردد في جنبات الدنيا ، ثم تجلجل كالهدير في أرجاء المعمورة، لكن تلك الأصوات المدوية تسكت فجأة أمام صراخ جديد!!

وفي كل مرة نسمع ونشاهد ونكتوي ، والغصن مثقل بالآلام الناضجة المحتملة الوقوع ، ومع هذا ننسى لنقع من ثم في دورة رديئة تعيد المشاكل كرة ثانية وثالثة .

هذا الكتاب عاصم عن تكرار الأخطاء ووعد بالخير والفلاح ، في عباراته لين وفي كلماته إيمان مؤثر وأما أفكاره فمابين سطورها مرامي ومرامي ، وهو ليس إشهادا على الذات. بمقدار ماهو شجرة حانية نقرأ من خلال جذورها وثمارها المواثيق الفكرية ، والبواعث والمحرضات الدعوية، لرجل خبير ومفكر سمح شهم ، أراد أن يعيد الود بين الدعاة والإسلام والإنسان.

أمل أن يتحول هذا الكتاب إلى مقرر دراسي في حلق العلم ، وفي المساجد وفي الجامعات والكليات الإسلامية والتربوية فهو خلاصة عاقلة وزبدة لفكر رشيد عميق باسم .

علاء الدين آل رشي

المدير الإعلامي

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... والنجابة والذكاء !

إنها حمحمة الحياة ، ووجهة المعرفة ، مرآة النور ، وعلاء الطريق الجاد الجميل ، رغم لأواء الهجرة وهجير الغربة .

كلمات أستاذنا البكار هنا ، بكور مبارك في نقل التجربة ، وتقويم الخطى ، وتقديم الخلاصات والألوان ، لكل من يريد أن يصنع مصيره بيديه ، ويتدبر عقال وعيه توكلا على الله سبحانه ، وانطلاقا من بصيرة الإسلام وبصائر دعاته .فالريادة الذاتية حالة حارة في شتاء المثل الأعلى لا تعوضها قدوات مستعارة أو نجوميات مغشوشة .

إن مع العسر يسرا والإحساس بالأمل الآتي ، بلسم لأهوال الهدف وغربة اللحظة .

هذا الكتاب القيم نبض وتعبير لمسيرة ومسار ، وهو رصد حي لتحولات متحدية لابد وأن يضيف جديدا لثقافة الزمان الصعب والعولمة المختالة .

عبد الله زنجير

مدير القسم العلمي في المركز

دار الثقافة والتراث
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق _ سورية _ ص.ب: ٨٢٣٥
هاتف: ٤٦٣٧١٢٣٢ ١١ ٩٦٣+ _ ٤٦٣٧١٢٣١ _ ٤٠٨٦
فاكس: ٤٦٣٧١٢٣٠ ١١ ٩٦٣+

تطلب جميع إصداراتنا
في المملكة العربية السعودية
من مكتبات تهامة
ومن مركز الراية المعرفية